نوابغ الفكر العربى

٣٣



القاضى الجرجانى

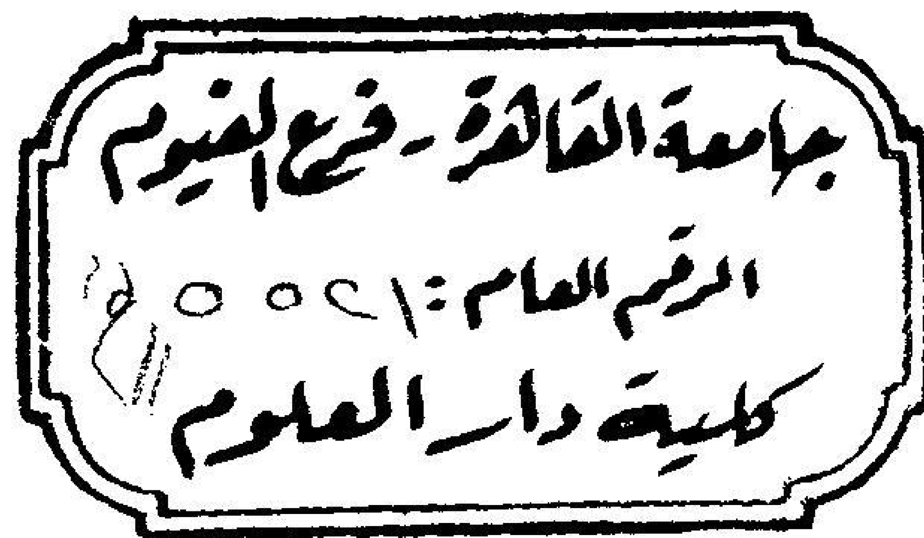


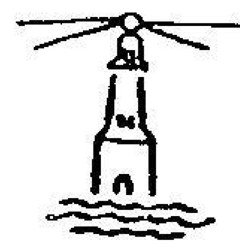
بقلم
الدكتور أحمد أحمد بدوى

يقولون : لى فيك انقباض ، وإنما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

القاضى الجرجانى

الطبعة الثانية





دار المعارف

الفصل الأول

عصر القاضى الجرجانى

١ ــ الحياة السياسية

لم تكن أحوال الدّولة العباسية فى أواخر القرن الثالث هادئة مرضية ، فقد كست الأحوال فى عهد المكتفى بن المعتضد الذى بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ (١٥ أبريل سنة ٩٢٠ م) ، وابتدأ عهده بور المنافسات بين كبار رجال الدّولة ، فكان أحدهم يكيد للآخر أخبث يد ، يريد أن يصل بذلك إلى مأربه ، غير ناظر فى ذلك إلى ما تقتضيه لحة البلاد ؛ فانصرف ذوو النفوذ إلى تحقيق أطماعهم الشخصية ، مما كان اً فى ازدياد أمر القرامطة شرًّا ، وانتشار فسادهم فى الشام والعراق والبحرين ريق مكة ؛ فقد مضوا إلى هذه البلاد يبثّون الرعب فيها ، ويكثرون القتل كلّ بلد دخلوه ، ويخرّبونه ، مما اضطر معه المكتفى إلى أن يخرج بنفسه نالهم فى الشام ، وبرغم هزيمتهم فيه لم يستطع الخليفة أن يبيد المذهب رمطىّ .

وفى عهد المقتدر أخى المكتفى ، الّذى بويع بالخلافة فى ذى القعدة نة ٢٩٥ هـ ، وكانت سنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ــ سقطت هيبة الخلافة لك الفتنة التى شبت بين المقتدر وابن المعتزّ ، وانتهت بالقبض على ابن المعتزّ حبسه وتعذيبه حتى مات[1] ؛ فلم يعد للخلافة سلطان ولا مكانة فى نفوس

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨ : ٨ .

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

الناس . وكان المقتدر عندما تولى الحكم حدثاً صغير السن ، لا يدرك فى السياسة شيئاً وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحكم فى كل ما يجرى من شئون الدولة ، وإليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملا أو وزارة ، والمقتدر ، منصرف إلى لهوه ، لم يعد بيده من الأمر شىء .

وقد توالى الوزراء فى أيامه ، يبدؤون عهدهم بالمصادرات ، وينتهى أمر أكثرهم بالقبض عليه وحبسه ، ونهب دوره وأمواله . يقول ابن الأثير فى حوادث سنة تسع وتسعين ومائتين : « فى هذه السنة قبض المقتدر على الوزير أبى الحسن ابن الفرات ، ولما قبض على الوزير ، وكل بداره . . . ونهب ماله ، ونهبت دور أصحابه ، ومن يتعلق به ، وافتتنت بغداد لقبضه ، ولقى الناس شدة ثلاثة أيام ، ثم سكنوا . . . وقلد أبو على محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان الوزارة . . . وكان ضجوراً ضيق الصدر ، مهملا لقراءة كتب العمال ، وجباية الأموال ... وكان أولاده قد تحكموا عليه ، فكل منهم يسعى لمن يرتشى منه ، وكان يولى فى الأيام القليلة عدة من العمال ، حتى إنه ولى بالكوفة فى مدة عشرين يوماً سبعة من العمال ، فعرضوا توقيعاتهم ، فسار الأخير منهم ، وعاد الباقون . . . فقيل فيه :

وزير قد تكامل فى الرقاعه ... يولى ، ثم يعزل بعد ساعه
إذا أهل الرشى اجتمعوا لديه ... فخير القوم أوفرهم بضاعه
وليس يلام فى هذا بحال ... لأن الشيخ أفلت من مجاعه

ثم زاد الأمر ، حتى تحكم أصحابه ، فكانوا يطلقون الأموال ، ويفسدون الأحوال ، فانحلت القواعد ، وخبثت النيات ، واشتغل الخليفة بعزل وزرائه ، والقبض عليهم ، والرجوع إلى قول النساء والخدم ، والتصرف على مقتضى آرائهن ، فخرجت الممالك ، وطمع العمال فى الأطراف[1] » . فى إفريقية

(١) المرجع السابق ص ٢٤ ، ٢٥ .

قامت الدولة العلوية ، واستقرت فى مدينة المهدية ، وجعلت همها الاستيلاء على مصر ؛ وفى البحرين وما جاورها اتسع سلطان القرامطة ، واستقلوا بملك هذه البلاد ؛ وفى خراسان وما وراء النهر استقر ملك الدولة السامانية ؛ وفى الموصل ابتدأت دولة الحمدانيين .

ولما رأى عبد الرحمن الناصر بالأندلس انحطاط شأن الخلافة العباسية إلى هذا الحد سمى نفسه : أمير المؤمنين[1] .

وكانت الفتن الداخلية ، والانصراف إلى تهدئتها سبباً فى استفحال أمر الروم على الحدود الإسلامية ، يغيرون عليها ، ويأسرون من فيها ، ويخربونها ، ولم ينتصف المسلمون منهم إلا فى القليل .

وهكذا كانت خلافة المقتدر فى جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية .

وبعد خلاف بين المقتدر وقائده مؤنس دارت معركة هزم فيها الخليفة وذبح ، ثم رفعوا رأسه على خشبة ، وهم يكبرون ويلعنونه ، وأخذوا جميع ما عليه ، وتركوه مكشوف العورة إلى أن مر به رجل من الفلاحين ، فستره بحشيش ، ثم حفر له موضعه ، ودفن ، وعفى قبره[2] .

وانقضت مدة القاهر بعده (٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ — ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ) فى أسوأ الأحوال ، بين اشتغاله بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه ، ومحاولة أخذ المال من أمه ، ولم يمنعه مرضها وجزعها على ابنها الذبيح من أن يضربها أشد ما يكون من الضرب ، وأن يعلقها برجلها ، لتعترف بما تملك ؛ ثم حل وقوفها جميعها ، ووكل فى بيعها ، فبيع ذلك جميعه ، ثم صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته[3] ؛ وعلق الأستاذ الخضرى على ذلك بقوله : « ولم نسمع فى التاريخ ما يقارب فعل القاهر نذالة ، وجبناً ،

(١) الدولة العباسية للخضرى ص ٣٩٦ .
(٢) الكامل ٧ : ٩٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٩١ .

وخسة ، وشراهة نفس[1] » .

وبعد نزاع عنيف بينه وبين وزيره ابن مقلة وقائده مؤنس وحاجبه وابن حاجبه وغيرهم ؛ اتّفقوا على خلعه ، وزحفوا إلى الدّار ، وهجموا عليها من سائر الأبواب ؛ فلما سمع القاهر الأصوات والجلبة استيقظ مخموراً ، وطلب باباً يهرب منه ، فلم يجده ، فقبضوا عليه وحبسوه ، وسملوا عينيه ، وبذلك انتهت مدة خلافته .

وازدادت الحال إدباراً واضطراباً فى عهد خلفه : الرّاضى (٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ – منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ) ؛ فكان أصحاب النفوذ فى العراق يتنافسون ، ويقتتلون ، والذين يحيطون بهم من المتغلبين يجدون ويجتهدون ، وانتهت مدّة الرّاضى فى منازعات سياسية ، والأعداء ، ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ، ولم يعد لها شىء من الهيبة ولا نفوذ الكلمة .

ومما زاد الأمر إدباراً ظهور المنازعات الدينية ببغداد ؛ فقد ظهر بها الحنابلة ، وقويت شوكتهم ، وصاروا يهاجمون دور القوّاد والعامة ، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن رأوا مغنّية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، وإن شاهدوا من يمشى مع امرأة أو صبىّ سألوه عن الذى معه : منْ هو ؟ فإن أخبرهم وإلا ضربوه ، وحملوه إلى صاحب الشرطة ، فأثاروا الفتنة ببغداد[2] .

وفى عهد الراضى ظهرت الدّولة الإخشيدية بمصر ، وحدث اسم أمير الأمراء فى بغداد ، وصار إلى أمير الأمراء الحلّ والعقد ، والخليفة يأتمر بأمره ، وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شىء[3] .

ولهذا كان الوصول إلى هذا المنصب أمل كبار رجال الدّولة ، ومن أجله يقتتلون ، وانتهت مدّة المتقى (٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ – ٢٠ صفر

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ٤٠١ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٠٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٤١١ .

سنة ٣٣٣ هـ) فى نزاع وحروب بين القادة للظفر بسلطة أمير الأمراء ، وانتهى الأمر بأن اختار المتقى مضطرّاً أكبر قوّاد الدّيلم واسمه : « توزون » لمنصب أمير الأمراء ، ولم يكن عنده شىء من حسن السياسة ، فاستوحش منه المتقى وخافه على نفسه ؛ فمضى إلى بنى حمدان ، وبعد حروب بين « توزون » وحماة الخليفة الحمدانيين ، حلف « توزون » ألا يغدر بالمتقى ، وفى الطريق الذى عاد به المتقى إلى بغداد التقى به « توزون » ، وقبّل له الأرض ، وقال له : هأنذا قد وفيت بيمينى والطاعة لك ، ثمّ وكّل به وبمن معه ، ثمّ سمله ، فأذهب عينيه ، ويقول ابن الأثير : « فلما سمله صاح وصاح مَن عنده : من الحرم ، والخدم ، وارتجت الدّنيا ، فأمر " توزون " بضرب الدّبادب ؛ لئلا تظهر أصواتهم ، فخفيت أصواتهم ، وعمِىَ المتقى لله[1] » .

وخلفه المستكفى بالله الذى لم يبق فى الخلافة إلا سنة واحدة وأربعة أشهر ، وفى عهده استولى البويهيّون على بغداد ، وفى اليوم الذى دخل فيه معز الدولة البويهى بغداد سقط السلطان الحقيقى من أيدى الخلفاء العباسيِّين ، وصار الخليفة ، رئيساً دينيًّا ، لا أمر له ، ولا نهى ، ولا وزير ، وإنما له كاتب يدير أمواله ، وصار معزّ الدولة يستوزر لنفسه من يشاء .

وقد خطر ببال معزّ الدّولة أن ينقل الخلافة عن العباسيين إلى العلويين ؛ لأن الديلم كانوا شيعة ، ولكنّ بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل ، وقال له : إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه ، مستحلّين دمه ؛ ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحّة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا ؛ فأعرض عما كان قد عزم عليه .

ولم يمكث المستكفى فى الخلافة بعد استيلاء معزّ الدولة سوى أربعين يوماً .

(١) الكامل ٨ : ١٦٣ .

ثم خلع ؛ لأن معزّ الدولة اتهمه بالتدبير عليه ، وصمم على خلعه ، فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ حضر معزّ الدولة والناس عند الخليفة ، ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان ، فتناولا يد المستكفى بالله ، فظنّ أنهما يريدان تقبيلها ، فمدّها إليهما ، فجذباه عن سريره ، وجعلا عمامته فى حلقه ، ونهض معزّ الدّولة ، واضطرب الناس ، ونهبت الأموال ، وساق الدّيلمان المستكفى بالله ماشياً إلى دار معزّ الدّولة ، فاعتقل بها ، ونهبت دار الخلافة ، حتى لم يبق بها شىء ؛ ولما بويع المطيع لله بعده سلم إليه المستكفى ؛ فسمله ، وأعماه ، وبقى محبوساً إلى أن مات[1] .

وإلى هذا الحدّ من الهوان وصلت الخلافة العباسية ، وزاد الأمر سوءاً ما كان بين الأسرة العباسيّة نفسهامن التباغض والتحاسد ، فمثلا نرى المستكفى بالله عندما ولى الخلافة يخافه المطيع لما كان بينهما من منازعة ، فقد كان كلّ منهما يطلب الخلافة ويسعى إليها ، ويهرب المطيع ، ويستتر ، والمستكفى يطلبه أشد الطلب فلا يعثر عليه ، فلما قدم معزّ الدولة إلى بغداد قيل : إن المطيع انتقل إليه ، واستتر عنده ، وأغراه بالمستكفى حتى قبض عليه[2] .

ولم يكن عهد المطيع لله (٢٢ جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ — منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣) بأفضل من عهد سابقه ، ولكن سارت الخلافة فى طريق الاضمحلال ، ولم يتجه معزّ الدولة إلى الإصلاح والتعمير ، وإنما انصرف إلى الحرب مع جنده الدّيلم حيناً ، ومع ناصر الدّولة بن حمدان بالموصل حيناً آخر ، ومع البريدىّ أمير البصرة تارة أخرى ؛ ولم يكن عهد معزّ الدّولة ببغداد إلا شرًّا كله ، من جرّاء الخلافات الدينية والحروب الداخلية والخارجية ، وضعف هيبة السلطان . وصارت البلاد أسوأ حالا فى عهد ولده عز الدّولة الذى اشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمغنين .

(١) المرجع السابق ص ١٧٦ — ١٧٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٧ .

وكان سوء الحال إلى هذا الحد سبباً فى طمع الروم واستفحال أمرهم ، فاستردّوا جميع الثغور الإسلامية الكبرى ، وأغاروا على كثير من بلاد الشام والجزيرة ، وصارت لهم الهيبة فى القلوب ، وأمراء المسلمين يغزو بعضهم بعضاً ، ويطمع كلّ فيما فى يد صاحبه ، ويُشغَلون بذلك عن عدوّهم الذى لا ينام[1] .

وخلع المطيع نفسه بعد أن أصيب بالفالج ، وخلفه ابنه الطائع إلى أن خلع فى ٢١ رجب سنة ٣٨١ هـ . وفى عهده قام الخلاف بين بنى بويه ، حتى إذا آل الأمر إلى بهاء الدّولة البويهىّ قبض على الطائع ؛ وذلك لأن الأموال قلّت عنده ، فشغب عليه الجند ، فأطمعه وزيره فى أموال الخليفة ، وحسّن له القبض عليه ، فأرسل إلى الطائع ، وسأله أن يأذن له فى الحضور إليه . فأذن له ، ودخل بهاء الدّولة ومعه عدد كثير . فلما دخل قبّل الأرض . وجلس على كرسىّ ، فدخل بعض الدّيلم كأنه يريد أن يقبّل يد الخليفة . فجذبه وأنزله عن سريره ، والخليفة يقول : « إنا لله ، وإنا إليه راجعون » ، ويستغيث ، فلا يُلتَفتُ إليه ، وأُخذ ما فى داره من الذخائر . وفى دار « بهاء الدولة » أشهد عليه بالخلع[2] سنة ٣٨١ هـ .

وظل الحال فى إدبار فى عهد الخليفة القادر بالله الذى ظل خليفة إلى أن مات سنة ٤٢٢ هـ ، فلم يكن له شىء من السلطان ، وكان فى زمنه أحداث عظام من قيام دول وإبادة أخرى .

وفى عهد هذا الخليفة توفى القاضى الجرجانى سنة ٣٩٢ هـ

وكانت « جرجان » إمارة لها مكانتها عند من يتغلب عليها ، وقد يتخذها دار مقامه كما فعل مؤيد الدولة البويهى[3] .

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ٤٣٤ وما يليها .
(٢) المرجع السابق ص ٤٤٦ .
(٣) الصاحب بن عباد ص ٣٢ .

٢ – الحياة الاجتماعية

لم تكن الثروة فى العصر الذى عاش فيه القاضى الجرجانى موزعة توزيعاً عادلا ، ولكنها كانت فى أيدى الأمراء والحكام ومن يلوذ بهم ، أما طوائف الشعب فترسف فى قيود البؤس والفاقة .

وكانت ثروة كبار الرجال ضخمة ، ينفقونها فى الترف وبناء القصور ، ومتع الحياة ، ولم يكن مصدر هذه الثروة فى كثير من الأحيان مصدراً مشروعاً ، فقد كانت المناصب الكبيرة تشترى بالمال ، على أمل أن يعود من يصل إليها ، لابتزاز أضعاف هذا المال من غير وجهه الحلال .

وقد حفظ لنا التاريخ بعض ما خلفه الأمراء فى ذلك الحين ، فنجد « بجكم » مثلا ، وهو الذى كان أمير الأمراء فى عهد المتقى ، يستولى الخليفة ، بعد قتله ، على داره وما فيها من الأموال ، فيبلغ ما ناله ألف ألف ومائتى ألف دينار ، وكانت مدة إمارة بجكم سنتين ، وثمانية أشهر وتسعة أيام (١) .

ومما يدلنا على مصدر أموال الأمراء ما يروى من أن مؤيد الدولة البويهى أمير جرجان عندما اشتد به المرض ، قال له الصاحب : تب يا مولانا من كل ما دخلت فيه ، وتبرأ من هذه الأموال التى لست على ثقة من طيبها ، وحصولها من حلها ، واعتقد متى أقامك الله وعافاك ، صرفها فى وجوهها ، ورد كل ظلامة تعرفها ، وتقدر على ردها (٢) .

كان المجتمع إذاً فى ذلك العهد يتكون من طبقتين تتميزان تمام التميز ؛ إحداهما طبقته العلية ، وهى محدودة العدد بالنسبة إلى الطبقة الثانية ، وهى جماهير الشعب .

(١) الكامل ٨ : ١٤٣ .
(٢) الصاحب بن عباد ص ٣٣ .

وكان لزاماً على الشعراء والعلماء إذا أرادوا الحياة أن يتصلوا بواحد من طبقة العلية ، يضمن له عيشه ، ويحيا الشاعر والعالم فى كنفه ، وربما اضطر أحدهما إلى أن يبذل ماء وجهه فى سبيل الوصول إلى من يرعاه ؛ وقد يؤثر بعضهم الانزواء والفقر ، على الثروة وفقدان الكرامة .

ولذلك شاع فى مدح الشعراء إطراء السخاء وذم البخل ، رغبة فى نوال الأثرياء ، كما شاع أيضاً إهداء العلماء كتبهم إلى الطبقة الحاكمة ، وتصدير هذه الكتب بذكرهم والثناء عليهم .

وفسدت الحياة الاجتماعية بما كان بين الجند من اختلاف عنصرى ؛ فإنهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك ، وبين العنصرين غيرة ومنافسات ، فكان بينهما فى أكثر الأحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس ، حيث تقف حركة التجارة ، لخوف الناس على ما بيدهم من المال (١) .

كما فسدت بالنظام الإقطاعى الذى يهب الأرض لكبار القواد والأمراء ، وهؤلاء لا يعنيهم من الأرض إلا ما تدره عليهم من الثمرات ؛ فاشتط غلمان المقطعين فى الظلم ، وضعفت همة الفلاحين فى القيام بزرع الأرض وإصلاحها وتنميتها (٢) .

كما عمل على فسادها أيضاً هذه الخلافات المذهبية التى كانت تثور بين العامة ؛ فتجعل البلاد ميداناً للاضطرابات المتكررة ؛ فبعد قيام الدولة البويهية ، وهى دولة مغالية فى التشيع ، نما مذهب التشيع ، ووجد له من قوة الحكومة أنصاراً ، فكانت الاضطرابات تتكرر ، والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين ، والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر ، وكان لذلك أسوأ الأثر فى الأحوال العامة (٣) .

(١) تاريخ الدولة العباسية للخضرى ص ٤٢٧ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق ص ٤٢٨ — ٤٢٩ .

ويضاف إلى ذلك هذه الاضطرابات التى كانت تسود البلاد عند قيام النزاع بين من يريدون الاستئثار بالسلطة ، أو بين بعض المتغلبين فى أطراف الدولة وبعضهم الآخر .

وظل المذهب الشّعوبى يعمل عمله فى النفوس ، فظهرت الحركة الانفصالية الفارسية فى القرن الثالث الهجرىّ ، وازدادت فى القرن الرابع ؛ فكانت بلاد فارس تجتّهد فى التخلّص من سلطان الخلافة العباسية ، ثمّ يمتدّ نفوذها السياسى إلى العراق ، وقام بها حينئذ دول ذات كيان مستقلّ .

كما أن اللغة الفارسية استعادت حياتها ، وفى ظلّ تلك الدّول ظهر شعراء ينظمون بالفارسية ، ومنهم من نظم بها وبالعرابية ، كقاموس بن وشمكير [1] .

أمّا الناحية الخلقية فكان الانحلال يسود طبقة الأغنياء والمترفين ، وكان الكبر والغطرسة ديدن أولى الأمر ، أما الفقراء والبائسون فأذلاء يبيعون كرامتهم ، وإذا كنا نرى فى بعضهم عزّة وكرامة فقد كان ذلك فى القليل النادر .

ولكن العلماء قد استعاضوا عن الظفر بمتع الحياة بتقدير بعضهم لبعضهم الآخر . فكانت تصل إلى النابغين منهم رسائل الإعجاب من قرّائهم ، وكان هؤلاء النابغون يجدون فى ذلك بعض العزاء .

ونضيف إلى مظاهر الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر الولوع بالغلمان فى الأوساط المستهترة ، وعند بعض العلماء والأدباء ، وظهر ذلك فى إنتاج الشعراء يومئذ .

وكان هؤلاء الغلمان مملوكين ، وكان الشعراء يتغزلون فيمن يملكون أو يملكه غيرهم .

---

(١) ابن العميد ص ١١ .

٣ ـ الحياة العقلية

إذا كان انقسام الدّولة العباسية ، وقيام دويلات فى أرجائها ، قد فتّت وحدة الأمة الإسلامية ، وعاد بالضّعف على الخلافة ــ فقد كان هذا الانقسام سبباً فى قيام نهضة علمية كبرى فى القرن الرّابع الهجرىّ .

ذلك أنه فى عصر الوحدة السياسيّة كانت العاصمة بغداد تستأثر وحدها تقريباً بالنصيب الأكبر فى النهضة العلمية والأدبية ، ولا يكاد يكون لغيرها إلا حظٌ ضئيل فى هذه النهضة ؛ فلما قامت الدّول المقتطعة من جسم الدّولة العباسية كان لكل دولة عاصمتها ، وفى كلّ عاصمة أميرٌ يعمل بكلّ ما أوتى من قوّة على أن يجذب إلى بلاده النوابغ فى العلم والأدب ، وينافس فى ذلك غيره من أمراء العواصم الأخرى ، فكان ذلك مجالا لتفتح مواهب كثير من العلماء الذين أتيح لهم الاتصال بهؤلاء الأمراء أو الوزراء .

كما أن فساد الحالة السياسية دفع بعض العلماء إلى أن يفرغ لعلمه بعيداً عن هذا المعترك الذى يتنافس فيه الرّاغبون فى المناصب السياسية الرفيعة .

وكانت بغداد والرّى ونيسابور ، وهى بلاد زارها القاضى الجرجانى ، كما زار غيرها ــ من مراكز الحركة العلمية النشيطة فى ذلك العصر .

وأتيح لهذا العصر ثلاثة من الرجال نهضوا بالعلم والأدب نهضة قوية ، وأتاحوا للعلماء حياة خصبة منتجة ، وهم عضد الدّولة البويهىّ ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد .

أما عضد الدولة فهو ابن ركن الدّولة صاحب بلاد الرّىّ والجبل ، ثم ضم العراق إلى ملكه ، بل ضم إليه تقريباً ملك البويهيّين جميعاً ، وكان يقيم فى الرّىّ أحياناً ، وحيناً فى شيراز . ثم جعل بغداد عاصمة ملكه بعد أن فتح العراق .

وكان عضد الدّولة إلى جانب ملكه الواسع ، مثقفاً ثقافة عالية ، يقصده العلماء ، ويمدحه الشعراء ، وإليه رحل المتنبى ، وأنشده قصائد مدحه ، وقال فى إحدى هذه القصائد :

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها[١]

وكان ابن العميد وزيراً لركن الدولة، وظل وزيراً نحو اثنتين وثلاثين سنة حتّى توفّى سنة ٣٦٠ هـ ، وكان مركز إقامته بالرّىّ .

وبرّز ابن العميد فى علوم شتى ، كان حافظاً للغة والغريب ، دارساً للنحو والعروض ، حافظاً لدواوين الشعراء جاهليين وإسلاميين، عارفاً بتأويل القرآن ، ومشكله ومتشابهه، ملمّاً باختلاف فقهاء الأمصار، وإلى جانب ذلك كان ذا حظ موفور فى الهندسة والمنطق ، وعلوم الفلسفة والإلهيّات والحيل (الميكانيكا) والطبيعة وغيرها[٢] .

وأثنى الصاحب بن عباد على ذوقه فى نقد الشعر إذ قال : « ما رأيت من يعرف الشعر حقّ معرفته ، وينقده حق نقده ، غير الأستاذ الرئيس أبى الفضل بن العميد ؛ فإنه يجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، فلا يرضى بتهذيب المعنى ، حتى يطالب بتخير القافية والوزن »[٣] .

وأما الصاحب بن عبّاد فكان هواه فى العلوم الشرعية كالحديث والتوحيد والأصول ، والعلوم اللغويّة ، وكان متبحّراً فى اللغة .

وكان واسع الثقافة الأدبية، اجتمع حوله من الأدباء ما قلّ أن يجتمع لغيره ، حتى قال الثعالبى عنه : « احتفى به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد »[٤] .

(١) كان عضد الدولة أول من لقب بالملك فى الإسلام – ظهر الإسلام ١ : ٢٤٦ .
(٢) ظهر الإسلام ١ : ٢٤٨ .
(٣) الكشف عن مساوئ المتنبى ص ٢١٣ .
(٤) ظهر الإسلام ١ : ٢٤٩ .

وفى عصر هؤلاء عاش القاضى الجرجانى ، واتصل بابن عباد وقابوس .

وقد تقدمت العلوم فى ذلك العصر ، وزادت فروعها على ثلاثمائة . كان من بينها علوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران[١] . وحسبك أن ترجع إلى كتاب « الفهرست » لابن النديم[٢] لترى تلك الجهود الواسعة التى بذلها العلماء فى دأب . حتى تكوّنت نهضة علمية مباركة .

فمن العلوم التى درست فى ذلك العصر العلوم الشرعيّة من التفسير والحديث والفقه والأصول وعلم الكلام ، وكان الصّاحب بن عباد معتزليّاً : نصر الاعتزال . وقرّب إليه المعتزلة[٣] .

ومنها العلوم اللسانية كالنحو والصرف ، وكان أكثر ما دوّن فيه شروحاً وتعليقات ، ومن أشهر علماء النحو فى ذلك العصر ابن جنى صاحب الخصائص فى أصول النحو ، وسرّ الصناعة فى النحو[٤] .

وظفرت اللغة بنصيب كبير من العناية فى ذلك العصر ، فرأينا أحمد بن فارس الرّازى[٥] ، يصنف كتاب المجمل حافلا بالشواهد[٦] ، ووصل إلينا من كتبه كتاب « الصاحبىّ » نسبة إلى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها . كما ألف الصاحب فيها كتابه « المحيط » .

وورث هذا العصر الكتب التى ألّفت فى الأدب والنقد الأدبى ، فقرأ آراء ابن سلام فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، وأفكار ابن قتيبة فى كتاب « الشعر والشعراء » ، وما جمعه ابن المعتزّ فى كتاب « البديع » ، وما كتبه قدامة فى مؤلفه : « نقد الشعر » ؛ كما ورث المجموعات الشعرية التى ألفها المفضل

(١) تاريخ الأدب العربى – ج ٣ – العصر العباسى ص ١٦ .
(٢) توفى سنة ٣٨٥ أو سنة ٣٧٨ هـ .
(٣) ظهر الإسلام ص ٢٥٣ .
(٤) تاريخ الأدب العربى ج ٣ – العصر العباسى ص ٢٤٦ .
(٥) توفى سنة ٣٩٠ هـ .
(٦) تاريخ الأدب العربى – ج ٣ – العصر العباسى ص ٤٧

الضبّى ، وأبو تمام والبحترى وغيرهم ، وآلت إليه دواوين الشعراء الذين نبغوا فى القرون السابقة ؛ فكان من ذلك ثروة أدبيّة واسعة .

كما أسهم هذا العصر بإنتاج أدبىّ ضخم من عمل الشعراء الذين عاشوا فى بلاط أمراء الدّويلات ووزرائهم ، أو عاشوا فى خضم الحياة العادية . وعلى رأسهم ديوان المتنبى .

وأسهم فى تاريخ الأدب والنقد بكتب لا تزال مراجع حيّة إلى وقتنا هذا، ككتاب الأغانى ، لأبى الفرج الأصبهانى[1] ، والموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، للمرزبانىّ [2] ، وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرىّ[3] .

وأثار المتنبى حركة قويّة من النقد فى حياته وبعد وفاته . فألفت رسائل فى بيان عيوبه ، وأخرى فى ذكر فضائله ومزاياه ، كما وقف البعض من هذه الخصومة موقفاً وسطاً يعرف للشاعر نقائصه وفضله . وكان من أثر ذلك ظهور كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى .

كما ثارت الخصومة أيضاً حول أبى تمام والبحترى ، فكان لكلّ منهما أنصار ومؤيّدون ، مما دعا الآمدى[4] إلى وضع كتاب « الموازنة بين الطائيّين » .

لقد آل إلى هذا العصر آراء مبعثرة عن النقد الأدبى ، فحاول بعض رجاله أن يستنبط من هذه الآراء المبعثرة قواعد مطردة كأبى هلال العسكرى مثلا ، ورأى البعض الآخر أن يقف عند النصوص ذاتها ، يتبين ما فيها من مظاهر الجمال أو القبح كما فعل الآمدى ، والقاضى الجرجانى ، وذلك يدل على حركة نقدية نشيطة فى ذلك العصر .

وكان التاريخ من المواد التى عنى بها كذلك ، وكانت قد تعدّدت

(١) توفى سنة ٣٥٦ هـ .
(٢) توفى سنة ٣٨٤ هـ .
(٣) توفى سنة ٣٩٥ هـ .
(٤) توفى سنة ٣٧٠ هـ .

الاتجاهات فى التأليف فيه ؛ من تاريخ للسير والفتوح ، ومن تاريخ للأنساب والطبقات ، ومن تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين ، أو خاص بالناس أو البلاد أو الأمم ؛ وأسهم علماء ذلك العصر أيضاً بجهود مشكورة فى هذه السبيل [1] ، وكان من ذلك كتاب للقاضى الجرجانى .

أما العلوم الكونية من طبيعيّة ، كالطبيعة ، والكيمياء ، والطبّ ، والصيدلة ، والحيوان ، والنبات ، والجماد ؛ ومن رياضيّة ، كالجبر ، والهندسة ، والحساب ، والحيل (الميكانيكا) ، والفلك ، والجغرافية ، ومن إلهية ، مما تتعلق بالإله ، وقوى النفس ، وكل ما وراء الطبيعة ، ومن سياسية ، كتنظيم الملك ، وتدبير المنزل ، وتدبير المال والأخلاق — أما هذه العلوم فقد ترجمت عن اليونانية والفارسية ، والهندية وغيرها فى القرن الثانى والثالث للهجرة ، واشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة ، وبرّز فيها من فلاسفة المسلمين أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى[2] ، وأبو نصر الفارابى[3] ، وأبو بكر الرّازى[4] .

وكانت هذه العلوم مما يدرس فى عصرنا الذى نتحدث عنه ، كما ألّف فيها بعض علماء هذا العصر[5] .

* * *

وقد أوجد ابن العميد والصاحب بن عباد حركة أدبية قويّة ، يومئذ ؛ لأنهما أرادا أن يجمعا بين جلال المنصب ووجاهة الأدب : «فهما وزيران خطيران ، وسياسيان كبيران ، وأديبان عظيمان ؛ فاستخدما كلّ ذلك فى إعلاء شأن الأدب »[6] ، وتأنقا فى إنتاجهما الأدبى تأنّقاً بالغاً .

(١) تاريخ الأدب العربى جـ ٣ — العصر العباسى ص ٢٥٤ .
(٢) توفى سنة ٢٦٠ هـ .
(٣) توفى نحو سنة ٣٥٠ هـ .
(٤) توفى سنة ٣١١ أو سنة ٣٢٠ هـ .
(٥) ظهر الإسلام ١ : ٢٤٩ — ٢٥١ .
(٦) ظهر الإسلام ١ : ٢٥٢ .

« فهؤلاء بحكم جاههم وعزّهم وترفهم ، كان نتاجهم الأدبى مترفاً يتأنّق فى فنه: فأناقة الملبس والمأكل والمعيشة جديرة بأن تحمل أصحابها على التأنّق فى الأدب ، فأدب هذا العصر تقدم خطوات فى السجع والمحسّنات اللفظية ، والمبالغة البلاغية ، فالصابئ وابن عباد أفرطا فى السجع ، وكادا يلتزمانه ، وغيرهما يسجع وإن كان لا يلتزم ، هذا إلى الإمعان فى الاستعارات والمجازات والتشبيهات ، وتفننوا فى تزيين الكتابة تفنن أصحاب الطرف فيما يصنعون ، من حلى وأدوات زينة ؛ وإذ كانوا فى مركز رئيسى فى الحياة الاجتماعية ، كان طبيعيّاً أن يكون نتاجهم هو المثل يقلّد ويُحتذَى ، فمن كان أديباً فقيراً تشبّه بهم ، وحذا حذوهم ، وهم بذلك قد خلقوا ذوقاً عامّاً فى الأدب ، يستحسن طريقتهم ؛ فجارى الأدباء هذا الذّوق[١] » .

ولكن ينبغى القول بأنّ بعض الأدباء قد أفلت من إسار السجع يومئذ ، فلم يلتزمه ، ولكنه إن جاء لم يرفضه ، فكان طبيعياً يستدعيه المعنى ، فلا يضيق به الصّدر ، كما أنّ ذلك البعض أفلت كذلك من إسار المحسّنات البديعية ، ومضى منطلقاً مع الطبع يهتدى بهداه ، كما فعل القاضى الجرجانى .

وقد تنوعت الكتابة فى ذلك العصر بين رسائل إخوانية ، ورسائل سلطانية وكتابة تأليف ، وإنشاء مقامات .

وقد ابتكر هذا اللون من الأدب ، وهو فنّ المقامات : اللغوى الرّاوية ، الأديب الشاعر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، عندما رحل إلى نواحى فارس للعمل مع ابنى ميكال ، فرأى أن اللغة الفارسية وآدابها تبعث من أجداثها ، فابتكر نوعاً من الأدب يعارض به الأدب الفارسى فى أربعين حديثاً ، وصفها الحصرىّ فى كتاب زهر الآداب[٢] بأنها كانت « فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله

(١) المرجع السابق ص ١٣٣ .
(٢) زهر الآداب ١ : ٢٣٥ .

الطباع ، ولا ترفع له حجبها الأسماع » ، ولعلّ هذه الأحاديث كانت فى معارض عجمية : لأنه كان يعارض بها الأدب الفارسى ، وكانت فى ألفاظ حوشية ، لأن ابن دريد كانت لغويته أغلب شىء عليه .

وجاء بعد ابن دريد ، أبو الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ ، فوضع مقامات على نسق ابن دريد[١] .

واتّبعه تلميذه بديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨ ، فأنشأ مقاماته التى تحدّث عنها الحصرى ، وذكر أن البديع عارض ابن دريد : « بأربعمائة مقامة فى الكدية ، تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً ، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى ، وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها ، بين رجلين سمى أحدهما : عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الإسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر ، فى معان تضحك الحزين ، وتحرّك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة [٢] » .

وهكذا شهد هذا العصر الذى نتحدّث عنه ميلاد المقامات ونموّها . ومما ينبغى أن نذكر هنا أنه برغم بعث اللغة الفارسية وآدابها فى ذلك العصر كانت اللغة العربية لغة العلم والأدب ، والحكومة والطبقة العالية فى فارس[٣] .

* * *

أما الشعر فبرغم أنه تطور على أيدى المحدثين ، لم تفسده الصناعة ، بل ظلّ محتفظاً بحياته وقوّته ؛ وحسبنا أن نذكر أن المتنبى[٤] ، والشريف الرضىّ[٥] كانا من شعراء ذلك العصر .

واحتفظ الشعر يومئذ بأغراضه الموروثة : من المدح ، والهجاء ، والرّثاء ،

(١) تاريخ الأدب العربى ج ٣ – العصر العباسى ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .
(٢) زهر الآداب ١ : ٢٣٥ .
(٣) ابن العميد ص ١٣ .
(٤) توفى سنة ٣٥٤ هـ .
(٥) توفى سنة ٤٠٦ هـ .

والغزل ، والوصف ، والعتاب ، والاعتذار ، والفخر ، والمجون ، والخمريات ، والزّهد ، والشكوى .

وكان للمدح نصيب كبير من جهود الشعراء فى ذلك الحين .

وقد انعكست صورة العصر فى الشعر والنثر ، فرأينا شعراً يمثل ترف المترفين ، وآخر يحكى بؤس البائسين ، وغير هذين يصوّر ترفع المترفعين ؛ ورأينا شعراً ونثراً لطائفة رأت فساد الحياة الاجتماعية ، وبؤس الطبقة الكادحة ، فرأت الانصراف عن وسائل العيش من التجارة والصناعة والزراعة إلى التسوّل عن طريق الأدب ، وسمّوا بنى ساسان ، وظهر أثر ذلك فى نثر المقامات ، فهى قصص يدور معظمها على الكدية .

وصوّر الشعر ظاهرة حب الغلمان ، فرأينا الوزير المهلبى برغم جلالة مكانته ، وعظم منصبه يقول فى غلام تركىّ كان لمعزّ الدولة ، وجعله رئيس سريّة جرّدها لحرب بعض بنى حمدان ، وكان الوزير المهلبى يرى أنه من عدد الهوى ، لا من عُدَد الوغى ، فقال فيه :

ظبى يرقّ الماء فى وجناته ، ويرقّ عوده
ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفًا ومنطقة تئوده[1]
جعلوه قائد عسكر ضاع الرّعيل ومن يقوده[2]

وهكذا تركت الحياة الاجتماعية صورتها واضحة فيما أنتجه العصر من الشعر .

(١) تئودة : تثقله .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٠٤ . والرعيل : القطعة من الجيش .

الفصل الثانى

القاضى الجرجانى فى عصره

١ ـ حياته

القاضى الجرجانى هو علىّ بن عبد العزيز ، ويذكر بعض مؤرّخيه له ثلاثة من الأجداد ، هم : الحسن ، علىّ ، وإسماعيل[1] .

وكان مولده بجرجان[2] ، التى وصفها ياقوت الرومىّ بقوله : « وهى مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، . . . وهى أكبر مدينة بنواحيها ، وهى أقل ندى ومطراً من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً ، وأكثر مروءة ويساراً . . . وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأنّى والأخلاق المحمودة ... وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدّثين ، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمى ... »[3] .

وهكذا كانت البيئة الأولى التى ولد فيها « على » ، بيئة تؤهل مَن عنده استعداد لأن يبرّز فى العلم والأدب ، وأن يتولى من المناصب ما يحتاج إلى الرّزانة والوقار والخلق الحميد كمنصب القضاء .

أما تاريخ **ولادته** فيختلف فيه مؤرّخوه ، وإذا كان الوضع الطبيعى لذكر تاريخ الوفاة هو آخر ترجمة الحياة ، فإننا هنا مضطرون إلى أن نذكر تاريخ الوفاة ؛ لأنه هو الذى يحدّد لنا تاريخ الميلاد .

فابن خلكان فى وفيات الأعيان يروى عن مؤلف تاريخ النّيسابوريّين أنه توفىّ فى سلخ صفر سنه ستّ وستين وثلاثمائة ، وعمره ستّ وسبعون سنة ؛ وعلى

(١) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .
(٢) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .
(٣) معجم البلدان ٣ : ٧٥ .

ذلك يكون تاريخ ولادته سنة تسعين ومائتين . ويرجّح ابن خلكان هذه الرّواية، ويقول : إنها أثبت وأصحّ(١) .

كما نقل ابن خلكان أيضاً رواية من ذهب إلى أنه توفى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة(٢) ، وإلى أنّ محمداً أخاه ورد به نيسابور فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة(٣) ، وهو صغير غير بالغ(٤) ؛ فإذا قدّرنا أنّ سنّه يومئذ كانت خمسة عشر عاماً يكون قد ولد فى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، ويكون قد أدرك السبعين يوم وفاته .

أما أنا فأخالف ابن خلكان ، وأرجّح هذه الرّواية للأسباب الآتية :

أوّلهما : أنى أرجح أنه مات بعد الصاحب بن عبّاد ؛ يقول الثعالبى : « وتصرّفت به أحوال فى حياة الصاحب ، وبعد وفاته : من الولاية والعطلة »(٥) ؛ وقد توفى الصاحب سنة خمس وثمانين وثلاثمائة(٦) .

وثانيهما : أنه اتصل بشمس المعالى قابوس بن وشمكير(٧) الذى تولى الحكم فى جرجان بعد سنة ست وستين وثلاثمائة(٨) .

وثالثها ، وهو يكاد يكون قاطعاً فيما ذهبنا إليه : أن الصاحب بن عباد قد صار وزيراً ابتداء من سنة ٣٦٦ هـ(٩) أما قبل ذلك فكان كاتباً للأمير البويهى

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ . وأخذ بهذه الرواية صاحب شذرات الذهب .

(٢) بهذه السنة أرّخ ياقوت فى معجم الأدباء (١٤ : ١٥) عام وفاة القاضى ، وحدد السبكى شهر وفاته فى هذا العام بذى الحجة (طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨) ، وحدد بروكلمان يوم الوفاة بالرابع والعشرين من هذا الشهر (١٤ نوفبر سنة ١٠٠١ م) – تاريخ الأدب العربى ٢ : ٢٧١ . وجعله ياقوت يوم الثلاثاء .

(٣) كتبت فى بروكلمان خطأ : سنة ٣٧٧ هـ ، وأغلب الظن أنها خطأة مطبعية .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ : وروى ذلك أيضاً السبكى فى طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٥) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٦) الصاحب ابن عباد ص ٤٤ .

(٧) راجع معجم الأدباء ١٤ : ٣٠ ، ويتيمة الدهر ٤ : ١٥ .

(٨) تاريخ الدولة العباسية للخضرى ص ٤٤١ .

(٩) الصاحب بن عباد ص ٢١ .

مؤيد الدولة ، وشعر القاضى الجرجانى فيه يصفه بالوزير ، إذ يقول من قصيدة يهنئه فيها بالبرء من المرض :

إذا ألمت نفس الوزير تألمت لها أنفس تحيا بها وقلوب

والله لا لاحظت وجهاً أحبه حياتى ، وفى وجه الوزير شحوب

مما يدل على أنه كان متصلا به بعد هذه السنة التى قيل إنه مات فيها .

وتلك الرواية الثانية هى التى أخذ بها بروكلمان وجعل غيرها خطأ(١) .

وأغلب الظنّ أنّ على بن عبد العزيز تلقى ثقافته الأولى ببلده جرجان ؛ فإن أول رحلة له فى طلب العلم كانت — على ما أرجح — إلى نيسابور ، حيث صحبه أخوه إليها ، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم ، كما ذكرنا .

ولست أدرى السبب الذى دفع القاضى الجرجانى إلى الرّحيل عن بلده جرجان ، ولكنى أرجّح أن الفتى علياً توفى أبوه ، وهو فى سنّ مبكرة ؛ فعنى بأمره أخوه محمد . فلما أراد هذا الأخ أن يرحل فى طلب العلم صحب معه فى الرّحلة أخاه الصغير ، وقصد نيسابور التى يصفها ياقوت بأنها « معدن الفضلاء ، ومنبع العلماء »(٢) ، حيث سمعا من سائر شيوخ المدينة(٣) .

ويظهر أنه أطال المقام فى نيسابور ، أو أنه كان يتردد عليها فى الحين بعد الحين ، ويطيل المقام فيها ، مما جعل مؤرّخ النيسابوريين يتحدّث عنه فى كتابه ، بل يزعم أنه مات فى نيسابور(٤) .

وتفتّحت نفسه فى هذه الرّحلة لطلب العلم ، ورأى فيها مجالاً للاغتراف من الثقافة بأوفى نصيب ، فمضى يجوب البلاد الإسلامية ، ليلقى العلماء ، ويأخذ عنهم ، يقول الثعالبى : « وقد كان فى صباه خلف الخضر فى قطع عرض الأرض ، وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرهما ، واقتبس من أنواع العلوم

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢ : ٢٧١ .

(٢) معجم البلدان ٨ : ٣٥٦ .

(٣) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ ، ووفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

والآداب ما صار به فى العلماء علماً، وفى الكُمَّال عالماً[1] » ، ويقول ياقوت : إنه « لقى مشايخ وقته ، وعلماء عصره[2] » .

وإذا نحن عرفنا أن القاضى الجرجانى ألف فى التفسير والتاريخ والفقه والنقد وله شعر ورسائل، استطعنا أن نستنبط ما أفاده فى هذه الرّحلات من ثقافة واسعة فى الشريعة والأدب ، وكتابه الوساطة يدل على اطلاع واسع على دواوين الشعراء السابقين ، وعلم غزير باللغة ، ومعرفة بالغريب ، ومقدرة على فهم معانى الشعر ، وتمكن من النحو والعروض ، واتصال وثيق بما كتبه النقاد من قبل .

والرّاجح عندى أن ثقافة القاضى الجرجانى كانت عربية خالصة ، لم يتصل فيها بالنقد اليونانىّ . وربما يكون قد ألمّ ببعض نواحى الفلسفة اليونانية ، مما مكّنه من معالجة بعض الشعر الفلسفى للمتنبى .

وإن رحلاته الكثيرة هى التى جعلته يقول :

مالى وَمالَك يا فرَاق أبداً رحيل وانطلاق[3]

ولعلّ بغداد كانت أكبر مدينة تركت فى نفسه أثراً بالغاً . فقد تغنى بها طويلا بعد أن فارقها ، وحنّ إلى معاهدها ، وذكرياته فيها ، وأنشأ فى ذلك عدّة قصائد لها أثرها العميق فى النفس .

وكان يتمنى أن لو عاد إليها .

ولعله انكفأ راجعاً إلى بلده ، بعد أن وعى صدره من العلم والأدب ما وعى ؛ وربما كان يأمل أن يجد تقديراً من حكام عصره ، فيولّوه عملا يدر عليه رزقاً واسعاً يناسب ثقافته العالية ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق ، ورأى دون الوصول إليه ما لا تحتمله نفسه ، ولا يطيقه خلقه : من خضوع ونفاق ، فانزوى فى بيته ، منفقاً من صبره ، مؤمناً بأنه لا يكفيه همّ الرزق إلا إنسان حرٌّ لا يكلفه إذلال نفسه ؛ وربما طلب إليه صحبه أن يرحل ليعيش فى كنف

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .
(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

أمير أو وزير ، فيقول :

وقالوا : اضطربْ فى الأرض ؛ فالرّزق واسعٌ
فقلتُ : ولكن مطلبُ الرّزق ضيّقُ
إذا لم يكن فى الأرض ، حُرٌّ يعيننى
ولم يكُ لى كسبٌ فمن أين أرزق[1]

وقد حقق الله للقاضى أمله يوم هيّأ له الاتصال بالصاحب بن عباد ، الذى صار وزير بنى بويه ، والذى « كان نادرة الدّهر ، وأعجوبة العصر فى فضائله ، ومكارمه ، وكرمه » « عالى المحلّ فى العلم والأدب »[2] .

واشتدّ اختصاص القاضى بالصاحب ، وحلّ عنده محلا رفيع المكانة ، وأجلّه إجلالاً يبين عنه ما بقى من آثار الصاحب .

قال القاضى : انصرفتُ يوماً من دار الصاحب ، وذلك قبيل العيد ، فجاء رسوله بعطر الفطر ، ومعه رقعة بخطه فيها هذا البيتان :

يأيها القاضى الذى نفسى له مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديتُ عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه[3]

وولاه الصّاحب قضاء جرجان[4] ، وهنا كانت الفرصة سانحة لعلىّ ابن عبد العزيز أن يظهر فى مدينته ، بتبوّئه فيها ذلك المنصب الكبير .

ولست أدرى ماذا فعل القاضى فى جرجان من الوسائل التى ينبنى عليها المجد ، فهل كان يجلس فى قومه مجلس الأستاذ ، يذيع بينهم علمه الغزير ، أو أنه التزم جانب العدالة فى قضائه ، حتى وجد المظلوم فى كنفه العدل والأمان ؟ أو أنه استخدم جاهه وصلته بالصاحب الوزير ، فأفاد أهل بلده بذلك الجاه العريض ؟

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٨ .
(٢) مقتبسات من وفيات الأعيان ١ : ٧٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٠ .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

لست أدرى ماذا فعل القاضى حتى صحّ له أن يقول :

وشيّدتُ مجدى بين قومى ، فلم أقل : ألا ليت قومى يعلمون صنيعى (١)

وكان القاضى يقول : إنّ الصّاحبَ يقسمُ لى من إقباله وإكرامه بجرجان أكثر مما يتلقانى به فى سائر البلاد ؛ وقد استعفيته يوماً من فرط تحفّيه بى ، وتواضعه لى ، فأنشدنى :

أكرِم أخاك بأرض مولده وأمِدّه من فعلك الحسن
فالعزّ مطلوب ومُلتَمَسٌ وأعزّه ما نيل فى الوطن(٢)

ولعل الصّاحب أراد أن يكون القاضى بجواره دائماً فولاه قضاء الرّىّ(٣) ، حيث يقيم الصاحب ؛ وفى الرّسالة التى كتبها الوزير إلى حسام الدّولة ، أبى العباس تاش الحاجب ، ما يدلّ على إعجاب الصاحب بالقاضى إعجاباً حمله على ألا يفارقه ، فقد كتب الصّاحب بخطه كتاباً إلى هذا الأمير ، عندما أراد القاضى السفر إلى جرجان لأمر من الأمور ، وجاء فى هذ االكتاب :

« قد تقدّم من وصفى للقاضى أبى الحسن علىّ بن عبد العزيز فيما سبق ... من كتبى ما أعلم أنى لم أؤد فيه بعض الحقّ ، وإن كنت دللتهُ على جملة تنطق بلسان الفضل ، وتكشف عن أنه من أفراد الدّهر ، فى كل قسم من أقسام الأدب والعلم ؛ فأما موقعه منى فالموقع الذى تحظيه هذه المحاسن ، وتوجبه هذه المناقب . وعادته معى ألا يفارقنى مقيماً وظاعناً ، ومسافراً وقاطناً ؛ وقد احتاج الآن ، إلى مطالعة جرجان ، بعد أن شرطت عليه تصيير المقام كالإلمام ... فإن رأى الأمير أن يجعل من حظوظى الجسيمة عنده تعهد القاضى أبى الحسن بما يعجلّ ردّه ؛ فإنىّ ما غاب كالمضل الناشد ، وإذا عاد كالغانم الواجد ، فعل إن شاء الله (٤) » .

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .
(٢) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .
(٣) المرجع السابق ص ١٤ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٣ . نقلا عن اليتيمة .

ومن تلك الرّسالة يتبين تقدير الصاحب للقاضى ، حتى جعله من أفراد الدهر . ويتبين أيضاً مقدار حرصه على أن يبقى القاضى إلى جانبه ، حتى صار كأنما هو من أفراد أسرة الصّاحب(١) .

وقابل القاضى الجرجانى هذا الحبّ والتقدير بود وإعجاب بالغين .

ولست أدرى السبب الذى من أجله كان القاضى الجرجانى يترك منصبه فى حياة الصاحب وبعد وفاته(٢) ، وهل كان من أسرار ذلك حنينه إلى العلم ورغبته الملحة فى الدراسة والاطلاع ، حتى قال :

ما تطعّمت لذّة العيش حتى صرْتُ للبيت والكتاب جليسا
ليس شىءٌ أعز عندى من العلم ؛ فلم أبتغى سواه أنيسا
إنما الذّلّ فى مخالطة النا س ؛ فدعهم ، وعش عزيزاً رئيسا(٣)

وترقى محل القاضى الجرجانى إلى أن صار قاضى القضاة بالرّى ، ولم يعزله إلا موته(٤) .

وإلى جانب هذا المنصب الكبير ذاع اسم القاضى فى أرجاء العالم الإسلامى بما نثر ونظم وألّف .

وقد عرف القاضى الجرجانى بعض كبار الرجال غير الصاحب ومدحهم .

ومما لا شك فيه أنّ القاضى الجرجانى كان له تلاميذه الذين قرءوا عليه ، وأخذوا عنه ، ولكن مؤرّخيه لم يذكروا أحداً من هؤلاء التلاميذ إلا عبد القاهر الجرجانىّ ؛ فقد روى ياقوت أنه قرأ عليه ، واغترف من بحره ، وكان إذا ذكره فى كتبه تبخبخ به ، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه (٥) .

وإنى أشكّ فيما رواه ياقوت من أنّ عبد القاهر قرأ على القاضى الجرجانىّ

(١) المرجع السابق ص ٢٢ نقلا عن اليتيمة أيضاً .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .
(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .
(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .

شيئاً ، لأنّ القاضى توفى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ؛ فمتى يكون عبد القاهر قد أخذ عنه ؟ لقد توفى عبد القاهر سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، فإذا كان قد أخذ عن القاضى الجرجانى ، فلا بدّ أن يكون عبد القاهر قد ولد قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاماً على الأقل ، حتى يستطيع أن يأخذ عن عالم واسع العلم كالقاضى ؛ ومعنى ذلك أنّ عبد القاهر ولد حول سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ؛ فيكون عند وفاته قد أربى على تسعين عاماً ، ولم يشر أحد من مؤرخيه إلى أنه طعن فى السنّ إلى مثل هذا الحدّ ؛ مما يرجح أنّ أخذ عبد القاهر عن القاضى كان أخذاً عن كتبه ، لاشخصه[١] .

ويصمت التاريخ صمتاً مطبقاً حول حياته الخاصة ، فهل تزوّج القاضى الجرجانى وكوّن أسرة وأنجب أولاداً ؟ أو أن رحلاته فى طلب العلم قد استغرقت شبابه ، حتى إذا رجع إلى بلده وجد ضيق العيش فى انتظاره ، حتى إذا انفسحت أمامه الآمال عندما اتصل بالصاحب بن عباد — كان وقت الزّواج قد تولى ، فانصرف إلى كتبه يقرؤها ، وإلى قرطاسه وقلمه يسجل ما انتهى إليه من أفكاره وتجاربه ؟ لا يجيب التاريخ عن ذلك السؤال .

وتوفى القاضى الجرجانى ، وهو قاضى القضاة بالرّى[٢] ، وزعم مؤرّخ النيسابوريين أنه توفى بنيسابور[٣] ؛ ويجمع مؤرّخوه على أن تابوته نقل إلى مسقط رأسه جرجان[٤] ، حيث شيعته مدينته تشييعاً حافلا ، وصلى عليه القاضى أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ، وحضر جنازته الوزير الخطير أبو على القاسم بن علىّ بن القاسم وزير مجد الدّولة راجلا[٥] ، حيث أودعه مقرّه الأخير .

(١) عبد القادر الجرجانى ص ٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ ، وطبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .
(٤) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ ، وطبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ ، وشذرات الذهب ٣ : ٥٦ .
(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .

٢ — صورته الجسمانية والنفسية

ليس فيما بين يدىّ من مصادر تاريخه ما يلقى ضوءاً ما على صورته الجسمانية ، ولم يرد فى شعره الذى بقى لنا ما يشير إلى شىء من هذه الصورة ، ومن أجل ذلك أرجح أنه كان إنساناً عاديّاً ، لا ترى العينُ فيه شذوذاً يستوقفها .

أما صفاته النفسية فإنا نرى عند مؤرّخيه إعجابهم به إعجاباً بلغ بياقوت أن يقول فيه : إنه أريب كامل[١] .

وأول ما نلحظه من صفاته : الذكاء ، فقد رأيناه قبل أن يبلغ سنّ الرّشد فى نيسابور مع أخيه محمد يتردّد على شيوخها ، ويأخذ العلم عن أعيان علمائها[٢] ، ورأينا أثر هذا الذّكاء فيما اهتدى إليه القاضى الجرجانى من مبادئ فى النقد كان لها أثرها الكبير فى النهوض بالنقد وحسن توجيهه . وكان من تقدير القاضى للذّكاء أن جعله من أسس صفات الأديب[٣] .

وثانى ما نلحظ فيه : مقدرته على التحصيل ، وهو بهذه الصفة وسابقتها يستطيع أن ينتفع بما يقرأ ، وأن يستنبط مما يعرفه قواعد يضيف بها جديداً إلى ثروة العلم ، وذخيرة الأدب ، وقد أشار مؤرّخوه إلى هذه المقدرة . فذكر الثعالبى أنه اقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به فى العلماء علماً وفى الكمّال عالماً[٤] ؛ وقال ابن خلكان فى الحديث عن كتابه : الوساطة : إنه أبان فيه عن فضل غزير ، واطلاع كثير ، ومادّة متوفرة[٥] .

وثالث ما نلحظه من صفاته : الصراحة فى قول الحق ؛ وليس أدلّ على

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .
(٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٤ .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .
(٥) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

هذه الصّفة من تأليفه كتاب الوساطة ؛ فنحن قد رأينا فيما مضى الصلة الوثيقة التى ربطته بالصاحب بن عباد، ورأينا حبّ الصاحب له حبّاً مبنيّاً على التقدير والإعجاب ، وسوف نرى قصائد المدح التى أنشأها القاضى فى الصاحب شكراً له وتسجيلا لفضله ، ومع كلّ ذلك لم يتردّد القاضى الجرجانى عند ما ألف الصاحب كتابه : الكشف عن مساوئ المتنبى — أن يعلن رأيه فى الشاعر صريحاً وإن خالف رأى الصّاحب .

وسواء أكان تأليف كتاب الوساطة قبل أن يتصل بالصاحب ، أو وهو متصل به ، أم بعد أن مات الوزير ، فليس ذلك بمنتقص من صراحة القاضى ، ولا بغاضٍّ من شأنها :

فلو أنّه كتبه قبل أن يتصل بابن عباد فإنّ هذه الصراحة لم تدفعه إلى أن يجامل رجلا مرموق المكانة ، رفيع المنزلة ، مأمول الجاه ، مرجوّ العون : ولو أنه كتبه بعد وفاته فهذه الصراحة أيضاً لم تدعه يجامل صديقاً لا يرى الحقّ إلى جانبه ؛ وأمر الصراحة فى قول الحقّ واضح إذا كان القاضى قد أنشأ الكتاب فى حياة الصاحب .

ورابع ما نذكره : حبّه للصدق ؛ فلا يصدر حكماً مبنيّاً على هوى ؛ وكان ذلك هو الذى دفعه إلى تأليف كتاب الوساطة ، فقد رأى الكثير من أحكام الصاحب صادراً عن الغيظ الذى ملأ صدره على المتنبى .

وخامس صفاته : ميله إلى العدالة ، ولذلك سجل له التاريخ أنه كان حسن السيرة فى قضائه ، صدوقاً [1].

وإن تلك الصّفات هى التى أهّلته لولاية القضاء ، وتأليف كتابه الخالد : الوساطة .

وسادس ما نستطيع أن نصفه به : الصبر ؛ فهو يصبر على الفقر ، ويمنع

(١) المرجع السابق نفسه .

نفسه من شهواتها إذا لم يجد ما ينفقه فى زمن العسر ، مؤمناً بأنه إذا لم يجد المرء عند نفسه ذخيرة من الصبر يلجأ إليها فى أيام الفاقة ، فإن للناس العذر إذا لم يقدموا إليه مالا ينفقه على رغائبه .

والصفة السابعة هى التى دفعته إلى الصبر وحملته عليه ، وهى عزة النفس والأنفة من إذلالها ، وهو لذلك لا يرى الخضوع لأرباب المال والسلطان وسيلة إلى الرّزق الواسع والغنى العريض .

والصفة الثامنة تتصل اتصالا وثيقاً بعزة النفس ، وتلك هى انقباضه عن الناس ، وإيثاره للعزلة عنهم ؛ لأنه يرى فى القرب من أصحاب السلطان خضوعاً لا يرضاه ، كما ذكرنا . ويرى فى القرب من الناس ما يدفعهم إلى الاستهانة بأمره والغض من قيمته ، وله فى ذلك قصيدة مشهورة يقول فيها :

يقولون لى : فيك انقباض ، وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذّل أحجما
أرى الناس : مَن داناهمو هان عندهم ... ومَنْ أكرمته عزّةُ النفس أكرما
وما زلتُ منحازاً بعرضى جانباً ... من الذمّ ، أعتد الصّيانة مغنما
إذا قيل : هذا مشرب ، قلت : قد أرى ... ولكن نفس الحرّ تحتمل الظما
ولم أقض حقّ العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرّته لىَ سلّما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدمَ من لاقيتُ ، لكن لأُخدَما
أأشقى به غرساً ، وأجنيه ذلّة ... إذاً فاتّباعُ الجهل قد كان أحزما
ولو أنّ أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه ، فهان ، ودنّسوا ... مُحيّاهُ بالأطماع ، حتى تجهّما [1]

فهو يرى من حقّ العلم أن يكون صاحبه رئيساً مخدوماً ، لا خاضعاً ذليلا لمن بيدهم المال والجاه ؛ ويضحى بزينة الحياة الدّنيا إذا صحبها الهوان والذّل .

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٢ ، ومعجم الأدباء ١٤ : ١٧ ، والنثر الفنى ٢ : ١١ . والمحيا : الوجه . وتجهم : صار عابس الوجه . والذى فى المعجم : (ولكن أذلوه جهاراً . . .) .

وصفه الانقباض عن الناس تحفظ له وقاره ، وهى كذلك بلا شك ترشحه لمنصب القضاء ، وتتفق مع هذا المنصب .

ولم يكن اتصاله بالصاحب بن عباد غاضًّا من عزّة نفسه ، أو نزولا منه عن كرامته ، فقد رأينا فيما أسلفناه تبجيل الصاحب للقاضى تبجيلا كان القاضى يستعفى الصاحب منه « لفرط تحفّيه به ، وتواضعه له »(١) .

ويظهر لى أنّ صفة الانقباض عن الناس ، وإيثار البعد عنهم كانت من أبرز سماته التى لحظها فى نفسه ؛ فلم يكن انقباضه عن كبار الرّجال فحسب . ولكن عن صحبه كذلك ، فقد كتب إلى أخوين له يعتذر من انقباضه عنهما ، وإغبابه زيارتهما :

أيا معهدَ الأحباب ، ذكّرهمُ عهدى   ودُمْ لى ، وإن دام البعادُ ، على الوُدّ
ولى خُلُقٌ لا أستطيع فراقه   يُفوّتنى حظّى ، ويمنعنى رشدى
نفور عن الإخوان من غير ريبة   تعدّ جفاء ، والوفاء لهم وكدى(٢)
غذيت به طفلا ، فإن رمتُ هجره   تأبّى ، وأغرتنى به ألفة المهد
على أننى أقضى الحقوق بنيّتى   وأبلغ أقصى غاية القرب فى بُعدى
ويخدمهم قلبى ، وودّى ، ومنطقى   وأبلغ فى رعى الزّمان لهم جهدى(٣)

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .
(٢) وكدى : قصدى .
(٣) جهدى : طاقتى .

فإن أنتما لم تقبلا لى عذرة   وألزمتمانى فيه أكثر من وُجدى
فقولا لطبعى أن يزول ؛ لأننى   أرى لكما حقّ الموالى(١) على العبد(٢)

والقطعة صريحة فى وصف هذه الخصلة ، وأنها متأصلة فيه ومن طباعه التى لا يستطيع أن يفارقها ، مع إيمانه بأنّ هذا الخلق يحول بينه وبين لذائذ الحياة .

وصفة تاسعة نستطيع أن نصفه بها مطمئنين ، تلك هى حبّه للجمال ، فقد تغنى بمظاهر الحسن ، وهفا إلى الجمال فى شعره .

وأغلب ظنى أنه كان يجد فى النبيذ متعة يسعد بها فى هذه الحياة ، وقد أباح بعض علماء الدّين شرب النبيذ إذا لم يصل شربه إلى حدّ الإسكار .

وغلبنى هذا الظنّ عند قراءة هذا الشعر للقاضى فقد أرسل إلى مَن كناه بأبى الحسن يقول له :

أبا حسن ، طال انتظار عصابةٍ   رجتك لما يُرْجى له الماجدُ الحرّ
وقد فاتهم من قربك الأنس والمنى   وحاربهم فيك اختيارك والدّهر
فإن كنت قد عُوِّضتَ عنهم بغيرهم   فعوّضْهُمُ راحاً يزول بها الفكر
فأنسُ الفتى فى الدّهر خلٌّ مساعد   وإن فاته الخلُّ المساعد فالخمر
فإما رسولٌ بالنبيذ مبادرٌ   وإلا فلا تغضب إذا غضب الشعر(٣)

ونستطيع أن نختم حديثنا عن صفاته النفسية بصفة عاشرة ، تلك هى أنه كان برغم انقباضه عن الناس طموحاً كبير الآمال ، نلمح ذلك فى قوله :

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى   لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما

(١) الموالى : السادة .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣ .

لا يرضى أن يعيش فى بلد لا يعزّ فيه ، ولا يقيم حيث يبتذل ولا يدرك مَنْ حوله مقداره :

وما أقيم بدار لا أعزّ بها ولا يقر قرارى حيث أبتذل(١)

وكان يدعو من لا يعز بداره إلى الرحيل عنها ، واختيار مقام جديد يحقق فيه آماله ؛ وها هو ذا يرسل إلى شاعر بلغه عنه أبيات يشكو فيها أهل ناحيته ، فكتب إليه :

إذا البلد المغمور ضاق برُحْبِه على ماجدٍ فليسكن البلد القفرا(٢)

وهو مؤمن بأنّ الصّبر هو الذى يحقّق الغايات ،ويحطمّ الصّعاب والعقبات :

وما غلب الأيامَ مثلُ مجرّبٍ إذا غلبته غايةٌ غلبَ الصّبرا(٣)

ولسنا نشكّ فى أنّ مدائحه لبعض أمراء عصره كان يريد بها أن يتخذّها وسيلة لتحقيق آماله ، ولا سيما أنه كان يجد نفسه أهلا لأن يظفر من الآمال بما يشاء ، على شريطة ألا يلجئه ذلك إلى ذل أو خضوع .

وكان القاضى الجرجانى يعتزّ بشخصيته ، وظهر من آثار هذا الاعتزاز أنه برغم صلته بالصاحب لم يتأثره فى التزام السجع .

ومع هذا الاعتزاز يبدو فيه تواضع العلماء ، فتسمعه يقول لمن يناظره : « فإن رأيتنى جاوزت لك موضع حجة فردّنى إليها ، ونبهّنى عليها ؛ فما أبرّئ نفسى من الغفلة ، ولا أدّعى السلامة من الخطأ »(٤) .

ومن صفاته عالماً وقاضياً تريثه فى الحكم ، وحبه للدّقة فيما يصدره من الأحكام ؛ فإذا أصدر حكماً عامّاً قرّر أنه أقدم عليه « انقياداً للظن ، واستنامة إلى ما يغلب على النفس ؛ فأما اليقين الثقة ، والعلم والإحاطة فمعاذ الله أن أدّعيه »(٥) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤ . (٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢١ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢ . (٤) الوساطة ص ١٧٤ .
(٥) الوساطة ص ١٥٧ .

ولنا أن نضيف إلى كل ما سبق أنه كان رجلا يحبّ أن يتقن كل عمل يوكل إليه ، ويبذل فيه كل ما يملك من الجهود .

٣ ــ علاقته بعصره

لم يتّصل القاضى الجرجانىّ بالسياسة فى البلاد التى رحل إليها فى العراق والشام ، على ماأرجـّح ؛ لأنّ همّه كان منصرفاً إلى الدّرس والتحصيل ، ووجد فى العلم ميداناً يستغرق نشاطه كله ، وربما رأى فى السياسة المضطربة التى سادت العصر الذى عاش فيه صارفاً يحول بينه وبين الانغماس فيها ؛ فإنه كان يرى عزيز اليوم ذليل الغد ، فما له يسير فى طريق لا يأمن مغبّته .

وعندما اتّصل بالصاحب بن عبّاد وبعض أمراء عصره، لم يمدحهم بشىء يتصل بالسياسة فيما بقى لنا من شعره .

كما أن منصب القضاء الذى تولاه بعيد كلّ البعد عن السياسة فى يد رجل نزيه يعتز بنفسه كالقاضى الجرجانىّ .

ولكنه اتّصل اتصالا وثيقاً بالحياة العلمية فى عصره ؛ فمضى يجوب البلاد باحثاً عن أعلام العلماء ، يأخذ عنهم ، ويجلس بين يديهم طالباً مجدّاً ، حتى إذا حصّل من الثقافة ما استطاع أن يحصّل ، عاد بدوره ينشر العلم بين طلابه ، وفيما يضعه من الكتب ، حتى ذكر اسمه فى الدنيا ، كما قال ياقوت (١) .

ويدلنا على ما وصل إليه فى عصره من المكانة العلمية أنه بعد أن ألف كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » أرسل إليه بعض أهل نيسابور مدحاً يقول فيه :

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .

أبا قاضياً ، قد دنت كتبه   وإن أصبحت داره شاحطه[١]
كتابُ « الوساطة » فى حسنه   لعقد معاليك كالواسطه[٢]

وها هو ذا يرسل إليه بعض أهل رامهرمز أبياتاً يمتدحه فيها ، فيجيبه القاضى الجرجانىّ بقصيدة طويلة يقول فيها :

بدأت ، فأسلفتَ التفضّل والبرّا   وأوليت إنعاماً ملكت به الشكرا
أتتنا عذاراك اللواتى بعثتها   لتوسعنا علماً ، وتلبسنا فخرا
فأوليتّها حسن القبول معظماً   لحقّ فتى أهدى بهنّ لنا ذكرا
تناهى النهى فيها ، وأبدع نظمها   خواطر ينقاد البديع لها قسرا
مدحتَ ، فعدّدت الذى فيك من علا   وألبستنى أوصافك الزهر الغرّا[٣]

وكنا نتمنى أن لو كانت الأبيات التى أرسلت إليه من رامهرمز قد وصلت إلينا لنتبين ما كان الناس يحملونه للقاضى من التقدير ، وأسباب إكبارهم له ؛ لأن البيتين اللذين قيلا فى الوساطة يدلان على مقدار ذيوع هذا الكتاب ، ووصوله إلى الأقاصى ، وما قوبل به عندما ألّف ، وفى التعبير بعقد المعالى ما يشير إلى ما كان يحمله الناس للقاضى من الإكبار والإعجاب .

كانت الصلة العلمية التى تربط القاضى بعصره قوية وثيقة ، وإذا كان القاضى ممن يؤثرون الانقباض عن الناس واعتزالهم ، كما ذكرنا ، فلم يكن ذلك الانقباض عن تلاميذه ، لأنهم هم الذين أذاعوا اسمه فى أرجاء الدنيا .

أما الصلة الوثقى التى ربطت القاضى الجرجانى بعصره تمام الارتباط فهى أخذه بنصيب من تلك الخصومة التى شبت فى عصره حول المتنبى (٣٠٣-٣٥٤ هـ) ؛ فمنذ حياة الشاعر تكوّنت أوساط معجبة به فى حلب ، والفسطاط ، وبغداد ، وشيراز ، حيث كان ديوان الشاعر يشرح .

---

(١) شاحطة : بعيدة .
(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .
(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٢١ .

أما دائرة حلب ، فقد تفرقت بموت سيف الدولة ؛ لأنها كانت فى جوّ معاد للشاعر ؛ وكذلك كان مصير دائرة شيراز ؛ فمنذ أقام عضد الدّولة فى بغداد ، ذابت فى دائرة عاصمة الخلافة .

ولم يضع موت المتنبى حدًّا للعداوة التى يحملها كثير من الكتاب والشعراء والعلماء للشاعر وديوانه :

فأحياناً تبدو هذه العداوة بالصمت ، ويظهر أنّ ذلك كان حال أبى الفرج الأصفهانى الذى لم يذكر مرّة واحدة شاعر سيف الدّولة فى كتابه العظيم : « الأغانى » ، وحال المرزبانىّ أيضاً (المتوفى سنة ٣٨٣ هـ) ؛ إذ لم يُشر إلى المتنبى أية إشارة بخير أو بشرّ فى كتابه : « الموشح » فى أخطاء شعراء العرب .

ومع ذلك لم يستمر النقد ملتزماً هذا الصمت المعاتب ، بل انتقل إلى دور الهجوم بعنف من لم يعد يخشى ردّ الشاعر الذى مات .

وقد بدأ ذلك الصاحب بن عباد ؛ فقد صنّف مؤلفاً صغيراً سمّاه : « الكشف عن مساوئ شعر المتنبى » ، كما عنى الحاتمى الذى كان قد حادث المتنبى — بنقد ديوان أبى الطيب ، فى رسالتين ، عنوان إحداهما : « الموضحة فى ذكر سرقات المتنبى والساقط من شعره » ، وتعرف هذه الرسالة أيضاً بالرسالة الحاتمية ، كما تعرف الثانية « بالرسالة الحاتمية » كذلك ، وفى مقدمتها يذكر أنّ بعض شعر المتنبى يذكّر بأفكار أرسطو ، ثمّ أورد مائة حكمة من حكم أرسطو ، وأتبع كل حكمة ببيت من شعر المتنبى ، يشتمل على فكرة مشابهة .

أما العسكرى الناقد البغدادى المؤلف لكتاب الصّناعتين ، والمتوفى بعد سنة ٣٩٥ هـ ، فيظهر أنه لم يقابل المتنبى ، وأن عداوته ناشئة من آراء شخصية لأبى هلال ، لا يرى شعر المتنبى يتفق معها ، وقد قال أبو هلال عنه :

« لا أعرف أحداً كان يتتبع العيوب ، فيأتيها غير مكترث إلا المتنبى ؛ فإنه

ضمّن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها »[1] .

أمام هذا الاتجاه المعادى للمتنبى ، نهض حبّ المعجبين بالشاعر ، وأخذ عددهم يزداد فى كل يوم .

فالصّابئ ، رئيس ديوان الإنشاء فى بغداد ، والذى كان يفكر فى أن يمدحه الشاعر ، لم يخطئ عندما كان يقتبس من شاعر الكوفة .

وفى بلاط البويهيين بالرّىّ ، لا ندهش عندما نرى الضّبّى ، أحد كتّاب الإنشاء ، والذى كان من المخلصين فى خدمة ابن عباد ، يستعير بعض أخيلة المتنبى .

ومما هو جدير بالنظر أنّ الوزير ابن عباد وجد نفسه مقوداً بغير إرادته إلى أن يعترف بمواهب الشاعر الذى يهاجمه ، بأن نثر أو تمثل علانية ببعض شعره الجيد .

كما نجد أبا بكر الخوارزمىّ الكاتب والشاعر ، معجباً بالمتنبى ، يقلّد ديوانه ، وينشره منذ عودته إلى خراسان .

ولن ندهش عندما نرى واحداً من أكثر تلاميذ المتنبى تحمساً له ، وكان الشاعر يعدّه أميناً على آرائه ، وهو ابن جنى — يدافع عن أستاذه فى شرح ، وفى مصنّفين صغيرين : أحدهما يدرس ما تناوله الدّيوان من الفنون الشعرية ، والثانى يفنّد الهجمات التى وجّهها ابن وكيع المصرى إلى الشاعر .

ولم يكن اتجاه الإعجاب بالشاعر خاصًّا بابن جنى ولا بوسطه ؛ لأننا نجده فى بخارى عاصمة السامانيّين ؛ فى حكم نوح بن منصور (٣٦٥ — ٣٨٧ هـ) ، نجد أبا الحسن محمد بن أحمد المشهور بالمتيّم يؤلف كتاباً عنوانه : « الانتصار المنبى عن فضل المتنبى » .

وفى هذا التاريخ تقريباً وضع أبو الحسين حمزة بن محمود الأصفهانى ، أحد

(١) ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين ص ٥ — ٩ ، وراجع الصناعتين ص ١٣٠ ، ١٤٢ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

كتّاب البويهيين — « رسالة فى كشف عيون المتنبى » وفيها يرينا بالشواهد التفوق الأدبى للمتنبى .

وكان هذا الحزب هو الحزب المعارض للنقد الذى وجهه الصاحب بن عباد.

خصومة بعض الناس للمتنبى ، وغرام البعض الآخر به ، ترك المكان لموقف ثالث ، هو النقد الذى لا ينكر قدر المتنبى ، ويأبى أن يغمض العين أيضاً عن هفوات ديوانه .

وكان القاضى الجرجانى الحائز لفضيلة السبق ؛ فلكى يردّ على ابن عباد ألّف كتابه : « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، حيث أراد أن يؤيد ما هو صحيح من الهجمات التى وُجّهت إلى الشاعر ، ويبين أيضاً ما يستحقه بجدارة من مدح المعجبين به [1].

وهكذا كان اتصال القاضى الجرجانى بعصره اتصالاً قويًّا عندما أدلى بدلوه فى خصومة طال النزاع فيها فى العصر الذى عاش فيه .

(١) المرجع السابق : ديوان المتنبى . . . ص ٩ — ١٢ .

الفصل الثالث

جوانب القاضي الجرجاني

١ ـ آثاره

ألف القاضى الجرجانىّ :

١ ـ « كتاب تفسير القرآن المجيد » ، ذكره له ياقوت[١] ، ولعلّ هذا الكتاب هو الذى جعل الداوودى يؤرّخ للقاضى فى كتابه : « طبقات المفسرين » .

٢ ـ و« كتاباً فى الوكالة » ، ذكره له السبكىّ فى كتابه : « طبقات الشافعية » ، وقال : إنّ فى هذا الكتاب أربعة آلاف مسألة [٢]. وذاك يدلنا على علم غزير ، واطلاع واسع ، ولهذا التبحّر فى الفقه ، أرّخ له أبو إسحق الشيرازى فى كتابه : « طبقات الفقهاء » ، وأرّخ له السبكى فى طبقاته ؛ والتاريخ له فى هذا الكتاب يدلّ على أنه كان شافعىّ المذهب .

وكانت دراسته للفقه ، وشهرته به ، هى التى رشّحته لمنصب القاضى .

٣ ـ وكتاب « تهذيب التاريخ » ذكره له ياقوت[٣] والثعالبى[٤] ؛ ويبدو من خطبة هذا الكتاب التى سجلها كتاب اليتيمة [٥] أنه كتاب فى تاريخ الرّسول ، وذكر آثاره وأخباره ، ومعارف أحواله وأيامه ، وبيان غزواته ،

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .
(٢) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .
(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .
(٥) يتيمة الدهر ٤ : ٨ .

بالإضافة إلى قصص من أنباء الأولين ، وأخبار الآخرين ، وما لهم من آثار فى الأرض ؛ وربما أراد بهؤلاء ملوك الفرس وما كان لهم من عظمة وسلطان ، وما تركوه فى بلادهم من الآثار .

وكان الثعالبى معجباً بهذا الكتاب قال عنه : « إنه تاريخ فى بلاغة الألفاظ ، وصحة الرّوايات ، وحسن التصرّف فى الانتقادات » ثمّ نقل[١] فصلين منه فى كتابه [٢].

وذاك يدلنا على أنّ القاضى الجرجانى تأنق فى صياغة كتابه ، واختار له لغة رفيعة مؤثرة ، وأنه كان يقف أمام الرّوايات يدرسها ؛ ليختار أصحّها ، ولم يكن يقبل كلّ ما يقال ، بل كان يحكّم عقله فى الأخبار المروية ، يبيّن صحيحها والزّائف منها ؛ وعنوان الكتاب ، وهو تهذيب التاريخ يدل على الخطة التى انتهجها صاحبه فى كتابة تاريخه من انتماء صحيح المعلومات ، واختيار صادق الرّوايات ، ونفى ما لا يثبت للعقل صحّته .

وإن هذه الخطة العادلة تتفق مع نفسية مؤلفه قاضياً عادلا . وفقد كتاب مثله يعدّ خسارة للمكتبة العربية .

وقدّم القاضى كتابه للصاحب بن عبّاد ؛ فقد قصد به مؤلفه غرضى دين ودنيا : أما الغرض الدينى فتاريخ الرسول لأهداف ذكرها القاضى ؛ وأما الدنيوىّ فأن يكون الكتاب تذكرة له عند الوزير ، يتجدّد به ذكره بحضرته ، ويتكرر به اسمه فى مجلسه .

٤ ـ وكتاب « الأنساب » ، قال بروكلمان [٣] : إن ابن خلدون فى تاريخه (١ : ١١٠ ـ أسفل) ذكر للجرجانىّ هذا الكتاب ، ولا بدّ أن يكون فى التاريخ ؛ لانتفاع ابن خلدون به فى كتابه .

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٧ و ٨ .
(٣) تاريخ الأدب العربى ٢ : ٢٧١ .

٥ ـ وله « رسائل » قال عنها ياقوت : إنها مدونة (١) ، ولكن لم يرد إلينا منها شيء ، ولم يورد الثعالبى منها شيئاً ، ولكنه اكتفى فى نثره بما اقتبسه من كتابى الوساطة وتهذيب التاريخ ، وأجرى ذلك مجرى الأنموذج من نثر كلامه (٢) .

ولعل من هذه الرسائل ما كان سلطانياً ، فقد روى ياقوت أنه أنشأ عهداً للقاضى عبيد الجبار على قاضى الرى (٣) ، ولعله أراد بذلك أن يبين مقدرته على كتابة مثل هذه العهود للصاحب بن عباد ، فمدحه الوزير ببيتين من الشعر (٤) .

٦ ـ وله « ديوان شعر » أثبته له ابن خلكان نقلاً عن أبى إسحق الشيرازى ، وقال السبكى فى طبقات الشافعية (٥) : « وله ديوان مشهور » ، ومن ذلك يبدو أن ابن خلكان لم ير الديوان ، فلو أنه رآه ما نسب ذلك إلى غيره ، فهل بقى الديوان وكان مشهوراً فى أيام السبكى المتوفى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة هجرية (٦) .

وقد ضاع الكثير من شعره ، وما بقى لنا منه قليل ، لا يكون ديواناً « صغيراً » ، وتجد معظمه فى معجم الأدباء ويتيمة الدهر .

٧ ـ أما الكتاب الذى وصل إلينا كاملاً من مؤلفاته فهو « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، وهو كتاب له قيمته الكبرى فى النقد الأدبى وقد بينا أن ظهور مثل هذا الكتاب طبيعى فى العصر الذى ألف فيه ، وأن مؤلفه قاض يريد أن يبين ويستبين مواطن الحق فيما يقوله الخصوم والأنصار .

ويظهر أن السبب المباشر لتأليف هذا الكتاب هو أن الصاحب بن عباد وضع رسالته المعروفة فى إظهار مساوئ المتنبى ، فلم ترق القاضى هذه المغالاة التى

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .
(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .
(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٤ .
(٥) ٢ : ٣٠٨ .
(٦) الأعلام للزركلى ١ : ٦١٠ .

يحملها للشاعر الخصوم والأنصار على السواء ، فألف كتابه : « الوساطة » .

وأما السبب الذى دفع الصاحب إلى تأليف رسالته فهو أن الصاحب لم ينس الإهانة التى وجهها إليه الشاعر ، ذلك أن الصاحب كان كاتباً يخدم ابن العميد فى الرى إلى أن استكتبه ابن العميد لمؤيد الدولة أبى منصور بويه أمير أصبهان ، فلما زار المتنبى ابن العميد طمع الصاحب فى زيارة المتنبى إياه بأصبهان ، وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو إذ ذاك شاب لم يستوزر بعد ، فكتب يلاطفه فى استدعائه ، ويضمن له مشاطرته جميع ماله ، فلم يقم له المتنبى وزناً ، ولم يجبه عن كتابه ، وقيل إن المتنبى قال لأصحابه : إن غليماً معطاء يريد أن أزوره ، وأمدحه ، ولا سبيل إلى ذلك ؛ فصيره الصاحب غرضاً يرشقه بالسهام ، ويتتبع عليه سقطاته فى شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته (١) .
وانتهى الأمر بأن وضع الصاحب رسالة أعلن منذ بدئها أنه كتبها ليبين ما فى شعر المتنبى من العيوب ، وليرد على من يظن الشاعر « معصوماً لا يرى له زلل ، ولا يوجد فى شعره خالل » (٢) ؛ إذ قال فى أول الرسالة : « وكنت ذاكرت بعض من يهتم بالأدب والأشعار وقائليها والمجودين فيها ، فسألنى عن المتنبى ، فقلت : إنه بعيد المرمى ؛ وشعره كثير الإصابة فى نظمه ، إلا أنه ربما أتى بالفقرة الغراء ، مشفوعة بالكلمة العوراء ، فرأيته قد هاج ، وحمى وتأجج ، وادعى أن شعره مستمر النظام ، متناسب الأقسام . ولم يرض حتى تحدانى ، فقال : إن كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره . . . ففعلت ذلك ، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتى ، ولا تتبع الزلات من طريقتى ، وقد قيل : أى عالم لا يهفو ، وصارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو ؟ » (٣) .

وتلك الكلمة التى صدر بها رسالته تدل على أمرين :

(١) الصبح المنبى ص ٨٢ .
(٢) الكشف عن مساوئ المتنبى ص ٢٤٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

أوّلهما : أنه لم يضع رسالته ليبين حسنات المتنبي وسيئاته،حتى « يقدح فى المؤلف أنه لم يشر إلى أىّ حسنة للمتنبي ، ولا أورد له أى بيت من أبياته الجميلة الكثيرة العدد » ، كما انتقده بذلك بعض الباحثين(١) ، وإنما وضع الرّسالة خالصة لبيان العيوب ، فلم يذكر لذلك المحاسن .

وثانيهما : أن الصاحب لم يدّع أنّ شعر المتنبى معيب كله ، بل قرّر أنه بعيد المرمى ، وشعره كثير الإصابة فى نظمه ، بل إنّ اعتذاره بأنّ العالم قد يهفو ، والصارم قد ينبو ، والجواد قد يكبو ، وتصديره ما عيب عليه « بربما » ، يدلّ على أنّ المعيب من شعره ، وإن كثر ، قليل بالنسبة إلى كثرة الإصابة فى نظمه ؛ فلا وجه للدّهشة إذاً من أمر الصاحب . إذ « نراه ينقد المتنبى هذا النقد المرّ مع أنه قد تأثر به ، وأخذ عنه » ، ولا أن تثبت إليه نسبة الرّسالة التى عنوانها : «كتاب الأمثال السائرة من شعر المتنبى » ، وأن يكون الصاحب « قد عاد عن تحامله إلى الإنصاف » ، كما توهم ذلك بعض الباحثين(٢) ؛ لأن الصاحب لم يكن منكراً لفضله ، ثم عاد ، فأثبته ؛ ولا مثبتاً فى رسالته ضعف أبيات ، ثم رجع عن عقيدته فيها ؛ ولكن رأيه الصّريح فيه أن شعره مصيب تعثّر فيه على بعض السقطات ، فأبان عن بعض سقطاته فى رسالة الكشف عن مساوئ شعره ، وليس ببعيد أن يبين محاسنه فى كتاب آخر ، ولا يكون الصاحب بذلك متناقضاً مع نفسه ، حتّى نضطر إلى أن نزعم أنه كان متحاملاً عليه ، ثم عاد عن تحامله .

ويمضى الصاحب فى رسالته ، مورداً أبياتاً له عسرة الفهم ، أو ذات ألفاظ تمجها النفس ، أو معان غير مقبولة ، أو تدل على سقوط نفسه ،

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ١٨٦ .
(٢) المرجع السابق نفسه .

أو استعارات غير موفقة ، أو كلمات شاذة أو غريبة ، ، أو أسلوب معقد ، أو مطالع رديئة ، أو ضرورات غير مستساغة ، أو قواف قلقة، أو كان الشعر لا يناسب المقام ، أو نحو ذلك من وجوه العيب .

والصاحب قد يبين أسباب نقده للشعر ، وأحياناً لا يذكر هذه الأسباب ، وفى كثير من المرّات يسخر بالشعر الضّعيف الذى يورده للمتنبى ، أو يورد أبياتاً قويّة ، ليرى الفرق بينها ، وبين الرّدىء الذى يستشهد به للشاعر ، أو يبين نزوله عما سلّم الناس بنزوله من الشعر .

ويبدو من الصاحب القسوة فى تعليقه على ما يورده من منتقَد شعر المتنبى ، وإن كنت تجد نفسك مسلّماً بوجهة نظر الصاحب فى أكثر ما أورده من الأبيات .

ويقف القاضى الجرجانىّ موقف من يريد أن يكون قاضياً يفصل فى الخصومة ، يقول القاضى : « وما زلت أرى أهل الأدب . . . فى أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبّى فئتين : من مطنب فى تقريظه ، منقطع إليه بجملته ، منحطّ فى هواه بلسانه وقلبه ، يتلقى مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم ، ويُشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم ، ويعجَب ويعيد ويكرّر ، ويميل على من عابه بالزّراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ؛ فإن عثر على بيت مختلّ النظام ، أو نُبِّه على لفظ ناقص على التمام ، التزم من نُصرة خطئه ، وتحسين زلله ، ما يزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر — وعائبٍ يريد إزالته عن رتبته ، فلم يسلّم له فضائله ، ويحاول حطّه عن منزلة بوّأه إياها أدبه ؛ فهو يجتهد فى إخفاء فضائله ، وإظهار معايبه ، وتتبع سقطاته ، وإذاعة غفلاته . وكلا الفريقين إما ظالم له ، أو للأدب فيه » (١) .

ولذلك ألّف القاضى الجرجانى كتابه لا ينهج فيه نهج المفرطين فى المدح ،

(١) الوساطة ص ٣ .

ولا الزّارين على الشاعر بالباطل ، ولكن أن يبين وجه الحق فيما قاله الخصمان .

ويرى صاحب الوساطة أنّ المرء إذا دلت على فضله آثار ظاهرة ، ونطقت بتقدمه شواهد صادقة « فصاحبها فاضل متقدّم ، فإن عثر له من بعدُ على زلة ، ووجدت له بعقب الإحسان هفوة ، انتُحلَ له عذر صادق ، أو رخصة سائغة ؛ فإن أعوز قيل : زلّة عالم ، وقلّ من خلا منها . وأىّ الرّجال المهذب » [١] .

ذلك هو المبدأ الذى يدين به القاضى الجرجانىّ ، ومعناه ألا ينبغى أن تذهب السيئات بالحسنات ، وألا يفخّم من أمر السيئة بل ينتحل لها العذر على أن يكون صادقاً ، وأن يعترف بالخطأ إن لم يمكن التماس العذر .

وإنّ هذا المبدأ هو الذى يميّز بين القاضى وخصوم الشاعر وأنصاره؛ فالأولون لا يلتمسون العذر للزّلات ، ويمضون معظّمين من شأنها ، والآخرون لا يعترفون بالخطأ ، بل يلتمسون معاذير لا يصححها العقل ، ولا يرضاها .

وربما كان تعظيم السيئات فى الرسالة التى كتبها الصاحب بن عباد هو الذى حفز القاضى إلى تأليف كتابه ، يقول الثعالبى : « ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى إظهار مساوئ المتنبى ، عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه » [٢] .

وبعد فمتى ألّف القاضى هذا الكتاب ؟

الذى أرجّحه أنّ الصاحب ألف رسالته بعد موت المتنبّى وقبل موت ابن العميد ، وقبل أن يصبح هو وزيراً ومعنى ذلك أن الرسالة ألفت بعد سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وهى السنة التى مات فيها المتنبّى [٣] ، وقبل سنة ستين وثلاثمائة ، وهى السنة التى مات فيها ابن العميد [٤] .

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٤ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٧ .
(٤) المرجع السابق ٢ : ٥٩ .

وسبب هذا الترجيح أن مقدّمة الرسالة تشعر بأن الحديث عن شعر رجل أصبح فى ذمة التاريخ ، كما أنّ الهجوم العنيف الذى فى الرّسالة يدلّ على أن الصاحب لا يخشى أن يهجوه الشاعر بقصيدة لا أعتقد أن ابن عباد يخاطر بنفسه ، فيستجلب غضب المتنبى فينظمها . وقد قرّر ذلك أيضاً المستشرق : بلاشير [١] .

وأما أنه كتبها قبل موت ابن العميد فوجه ترجيحى له أن الصاحب عندما كان يذكره لا يقول بعد اسمه : « رحمه الله » ، وهو أقل ما ينبغى أن يقوله الصاحب لو أن ابن العميد كان قد مات .

وكان « ابن العميد » نفسه كثير الانتقاد لأبى الطيب [٢] ، وربما أراد الصاحب بذلك أن يرى ابن العميد مدى موافقة الصاحب له فى رأيه فى الشاعر .

ولذلك لا أتفق مع الآستاذ بلاشير الذى جعل تأليف رسالة الصاحب حول سنة ٣٦٤ هـ [٣] .

والذى أرجحه أيضاً أنّ القاضى الجرجانى لم يؤلف كتابه عقب تأليف الصاحب رسالته ؛ لأنّ ما قاله له بعض أهل نيسابور فى كتاب الوساطة ، وهو :

أيا قاضياً قد دنت كتبه   وإن أصبحت داره شاحطه [٤]
كتاب الوساطة فى حسنه   لعقد معاليك كالواسطه [٥]

يرجح أن المؤلف كان قد تولى منصب القضاء ، وهو قد تولى هذا المنصب ،

(١) ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين ص ٦ .
(٢) النقد المنهجى عند العرب ص ٢٠٦ .
(٣) ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين ص ٦ .
(٤) شاحطة : بعيده .
(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

على ما أرجح بعد أن صار الصاحب وزيراً ، والصاحب لم يتول هذا المنصب إلا سنة ٣٦٦ هـ [١].

وقد صار لقب القاضى ملازماً لمؤلف الوساطة ما بقى من عمره ، فلا سبيل إلى القطع بأنه ألفه وهو قاض فى حياة الوزير الصاحب .

بل إن إيراده لبيت الوزير الذى استشهد به فى باب التصحيف[٢] مسبوقاً باسم الصاحب ، وهو إسماعيل بن عباد ، من غير أن يلقبه بالوزير — قد يوحى بأن كتاب « الوساطة » ألف بعد موت الصاحب ، وأن الوزير أصبح فى ذمة التاريخ ، يتحدث المؤلف عنه ، كما يتحدث عن الشعراء السابقين .

وليس فيما بين يدى من المراجع ما يجعلنى أقطع فى ذلك برأى .

ويظهر أن كتاب « الوساطة » نال حظاً كبيراً من الشهرة يصفها الثعالبى ؛ إذ يقول : « فسار الكتاب مسير الرياح ، وطار فى البلاد بغير جناح » [٣].

كما يصف مؤلفه بقوله إنه « أحسن وأبدع ، وأطال وأطاب ، وأصاب شاكلة الصواب ، وأعرب عن تبحره فى الأدب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد » .

(١) الصاحب بن عباد ص ٢١ .
(٢) الوساطة ص ٤٥ .
(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٤ .

٢ ـ آراؤه فى النقد الأدبى

كانت الوساطة بين المتنبى وخصومه مجالاً عرض فيه القاضى آراءه فى النقد الأدبى ؛ ليتخذ ذلك قاعدة يبنى عليها أحكامه فى المتنبى وغيره من الشعراء ؛ وهذه بعض آرائه :

(١) إنتاج الشعر :

وأول ما عرضه من ذلك رأيه فى الخصائص التى لابد منها لإنتاج الشعر ، وأنها : الطبع ، والذكاء ، والرواية ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان [١].

وإذا كان القاضى قد جعل الشعر علماً من علوم العرب ، فإن التفرقة بين العلم والفن لم تكن معروفة فى عصره ، ولذلك ينبغى ألا نفهم من « العلم » فى كلامه ما نفهمه اليوم من هذه الكلمة .

ونظرة القاضى صائبة إلى مدى بعيد ؛ فالشاعر لابد له من هبة تولد معه ، ولا يستطاع اكتسابها ، والشعراء يختلفون فى هذه الهبة أو الطبع ، كما سماه الجرجانى ، فمنهم فياض الطبع ، ومنهم من هو ذو هبة محدودة .

وأما الذكاء فبه يلمح الشاعر ما لا يلمح غيره من الناس ، ويدرك من الصلات والمفارقات ما لا يدركه سواه ؛ وبذلك يتميز عن غيره ، ويتفرد بألوان من الإحساسات والمشاعر .

ويختلف الشعراء فى الذكاء أيضاً ، فمنهم الألمعى المتوقد ، ومنهم دون ذلك .

ويريد القاضى بالرواية أن يعيش الشاعر مع النصوص الأدبية ، لصقل

(١) الوساطة ص ١٤ .

طبعه وذكائه ، ولذا كانت حاجة المحدث إلى الرّواية أمسّ ، واحتياجه إلى كثرة الحفظ أظهر ؛ لأنّ المطبوع الذّكىّ لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلاّ رواية ، ولا طريق للرّواية إلا السمع ، وملاك الرّواية الحفظ ، وبالرّواية يبلغ الشاعر حظّاً كبيراً من براعة القول .

وقد أدرك النقاد ما لمخالطة النصوص الأدبية من أثر فى الشاعر ، حتى عدها ابن خلدون العنصر الأساسى لتكوين ملكة البلاغة ، إذ يقول : « وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب ، وتكرّره على السمع ، والتفطّن لخواص تركيبه »[١] .

وما زلنا إلى اليوم نؤمن بأثر حفظ النصوص الأدبية ، ودراستها فى صقل أسلوب الشاعر ، وتهذيب لغته .

وبالدّربة يظهر الطبع الكامن ، ويبلغ أشدّه ، وبدونها يذبل ذلك الطبع ويذوى ، كبذرة أهمل أمرها ، فلم تنبت .

وإذا كان لنا أن نضيف شيئاً إلى ما ذكره القاضى فذلك هو الثقافة الواسعة التى تمدّ الشاعر بما يزيد إحساسه عمقاً ، وشعوره قوة وسعة .

(ب) اختلاف الشعر :

وباختلاف حظوظ الشعراء من الأمور الأربعة التى ذكرها ، وهى : الطبع والذكاء والرواية والدّربة ؛ يختلف الشعراء فى الإجادة والتبريز .

أما رقّة الشعر وصلابته فمرجعهما ثلاثة أمور :

أولها : اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، وأنت ترى ذلك ظاهراً فى أهل عصرك وأبناء زمانك : ترى الجافى الجلف منهم كزّ الألفاظ ، معقّد الكلام ،

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٦ .

وعر الخطاب ، وتحسّ بذلك أيضاً فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته[١] .

وثانيها : البداوة ، فمن شأنها أن تحدث بعض ذلك ؛ ولذلك تجد شعر عدىّ ، وهو جاهلى ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة ؛ لملازمة عدىّ الحاضرة ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب[٢] ؛ ولذلك نرى الشعراء يختارون الكلام الليّن السّهل بعد مجىء الإسلام ، واتساع ممالك العرب ، وكثرة الحواضر ، ونزوع الناس من البوادى إلى المدن[٣] .

وثالثها : الغرض الشعرى ؛ فإنك ترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيّم ، والغزل المتهالك[٤] .

ومعنى ذلك أنّ بعض أغراض الشعر يفرض الرّقة فى معالجته كالغزل مثلا ؛ لأن القاضى يرى ألا تجرى أنواع الشعر كله مجرى واحداً ، بل ينبغى أن تقسّم الألفاظ على رتب المعانى ؛ فلا يكون الغزل كالفخر ، ولا المدح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ، ولا الهزل كالجدّ ، ولا التعريض مثل التصريح ، بل ترتب كلاًّ مرتبته ، وتوفيه حقه ؛ فتلطفُ إذا تغزّلت ، وتفخمُ إذا افتخرت ، وتتصرّف للمديح تصرّف مواقعه ؛ فإنّ المدح بالشجاعة والبأس يتميّز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ؛ فلكل واحد من الأمرين نهج يخصّه ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه[٥] .

(ح) المثل الأعلى للشعر :

صوّر القاضى الجرجانى ما يراه مثلا أعلى للشعر ، وأنّ ذلك يتحقق بشروط تكون فى اللفظ والأسلوب ، وصفات يتسم بها المعنى .

(١) الوساطة ص ١٧ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) المرجع السابق نفسه .
(٥) الوساطة ص ٢٣ .

أما تلك التى تكون فى المعنى ، فألا يكون مبتذلا(١) ، وأن يكون صحيحاً شريفاً ، مصيباً فى الوصف ، مقارباً فى التشبيه ، إنسانيًّا يجرى على الألسن مثلا وحكمة (٢). ولم يفسر القاضى ماذا يريد بالابتذال ، ولا ما يقصده بالشرف ؛ وربما كان مراده منهما البعد عن المعانى الدارجة الشائعة بين الناس ؛ فإننا نرى من الأمثلة التى جاء بها قول البحترى :

أجدّك ما ينفك يسرى لزينبا ... خيال إذا آب الظلام تأوّبا(٣)
سرى من أعالى الشام يجلبه الكرى ... هبوب نسيم الرّوض تجلبه الصّبا
وما زارنى إلا وَلِهتُ صبابة ... إليه ، وإلا قلت : أهلا ومرحبا
وليلتنا بالجزْع بات مساعفاً ... يرينى أناة الخطو ، ناعمة الصّبا
أضرّت بضوء البدر ، والبدرُ طالع ... وقامت مقام البدر لما تغيّبا
ولو كان حقًّا ما أتاه لأطفأت ... غليلاً ، ولافتكّت أسيراً معذّبا
علمتك إن منّيتِ منيت موعداً ... جهاماً ، وإن أبرقتِ أبرقت خلّبا(٤)
فوا أسفى ! حتّام أسأل مانعاً ... وآمن خوّاناً ، وأعتِب مذنبا(٥)

وبنظرة إلى هذا الشعر لا نرى معانيه مما تلوكه ألسن العوام ، حتى إن الشاعر عندما أراد أن يعقد صلة بينها وبين البدر لم يلجأ إلى التشبيه المألوف ، ولكنه أحسّ بحبيبته أجمل من البدر ، فإذا نظر إليها والبدر يتلألأ فى السماء ، يرى وجهها أبهى منه طلعة وأجمل ضياء ؛ فلا عجب أن أضاء له وجهها ظلمات السدف بعد أن غرب بدر السماء .

ولا ينغص على هذا الاستنتاج إلا قول الشاعر لحبيبته : أهلا، ومرحباً ، فهو من الأمور الدّارجة التى لا ارتفاع فيها عن السوقة والدّهماء ، ولكن للشاعر عذراً فى ذلك ؛ فقد صوّر لنا ما وقع عندما رأى طيف الحبيبة .

(١) الوساطة ص ٢٦ . (٢) الوساطة ص ٣٢ ، ٣٣ . (٣) تأوب : رجع ليلا .
(٤) الجهام : السحاب لا ماء فيه . والبرق الخلب : المطمع المخلف .
(٥) الوساطة ص ٢٥ .

ويكون المعنى مبتذلاً كذلك إذا تداوله الشعراء ، وأكثروا من ذكره ، كما نرى ذلك فى عيون الجآذر(١) وعيون الغزلان (٢).

أما المعنى الإنسانى فهو الذى يجد فيه الناس صدى لما يجول فى نفوسهم ، ومعبّراً عما يشعرون به ، فيجرى البيت الذى تضمن هذا المعنى على الألسنة ، ويسير فى الآفاق .

ولا ينبغى أن يغضّ المعنى من شأن الشعر إذا لم يكن دينيًّا ؛ « فلو كانت الدّيانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدّواوين ، ويحذف ذكره إذا عدّت الطبقات ، وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية . . . ولكنّ الأمرين متباينان ، والدّين بمعزل عن الشعر » (٣) . وتلك حرّية فكرّية لناقد من رجال الدّين .

ولا يقبل القاضى الإحالة فى المعنى ، ولذلك لم يقبل قول أبى نواس :

وأخَفتَ أهل الشرك ، حتى إنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

ويقول إنه من المحال الفاسد (٤).

كما أنه لا يقبل الإفراط ، ويراه منقصة ذميمة ، وإن كان يرى القدماء قد أتوا به ، وجاء الذين بعدهم فرأوا سبيلا مسلوكاً ، وطلب المتأخر الزّيادة ، ولم يقف عند حدّ المتقدّم ؛ فاجتذبه الإفراط إلى النقص ، وعدل به الإفراط نحو الذم (٥).

وأما الاستعارة فلها قيمتها الكبرى فى البلاغة ؛ فهى أحد أعمدة الكلام ، وعليها المعوّل فى التوسّع والتصرف (٦) ، وتكسو الكلام بهجة وجمالا(٧) .

(١) الوساطة ص ٣٠ .
(٢) الوساطة ص ٣٠ ، ٣١ .
(٣) الوساطة ص ٦٢ .
(٤) الوساطة ص ٤٤١ .
(٥) الوساطة ص ٤٣٧ .
(٦) الوساطة ص ٤٤٢ .
(٧) الوساطة ص ٣٠ .

ويعرّف القاضى الاستعارة بأنها ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت مكان غيرها (١). ويفرق بينها وبين التشبيه الذى يجمع بين الأصل والاسم المستعار ، كقول أبى نواس :

والحبّ ظهر أنت راكبه   فإذا صرفت عنانه انصرفا

إذ المعنى : الحبّ كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه (٢).

ويرى القاضى الجرجانى أنّ ملاك الاستعارة تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه (٣).

وعلى هذا الأساس تكون الاستعارة جيدة ، وإذا خالفته كانت مذمومة رديئة ، فإذا جاءتك الاستعارة كقول زهير :

وعرّى أفراس الصّبا ورواحله

وقول لبيد : إذا أصبحت بيد الشمال زمامها

وقول ابن الطثريّة :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

فقد جاءتك الاستعارة المحببة إلى النفوس (٤).

فإذا استمعت إلى قول أبى تمام :

باشرت أسباب الغنى بمدائح   ضربت بأبواب الملوك طبولا

فاسدد مسامعك، وإياك والإصغاء إليه ؛ فإنه مما يصدئ القلب ، ويطمس البصيرة ، ويكدّ القريحة (٥).

ويعيب القاضى على أبى تمام أنه هو الذى أخرج الاستعارة عن نهج الاقتصاد الذى كان يجرى عليه الشعراء قبله (٦).

(١) الوساطة ص ٤٠ .
(٢) الوساطة ص ٤٠ .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) الوساطة ص ٣٣ — ٣٩ .
(٥) الوساطة ص ٣٩ — ٤٠ .
(٦) الوساطة ص ٤٤٢ .

ولا يزال هذا الأساس الذى اختاره صاحب الوساطة أساساً صالحاً للاستعارة .

أما عناية القاضى الجرجانى بالأسلوب وتقديره لأثره القوى فى النفس فبالغة حدّاً كبيراً ، وحسبك أن تسمعه يقول : « وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرّشيق من القلب ، وعظم غنائه فى تحسين الشعر ، فتصفّح شعر جرير وذى الرّمة فى القدماء ، والبحترى فى المتأخرين ؛ وتتبع نسيب متيّمى العرب ، ومتغزّلى أهل الحجاز ، كعمر ، وكثيّر ، وجميل ، ونُصيب ، وأضرابهم . . . ثم انظر واحكم وأنصف ، ودعنى من قولك : هل زاد على كذا ؟ وهل قال إلاّ ما قاله فلان ! فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم ، وإنما تفضى إلى المعنى عند التفتيش والكشف » (١).

ومعنى ذلك أنّ جمال الأسلوب هو أوّل ما يأسرك فى الشعر ، ويملك عليك نفسك ، أما المعنى فإنه يؤثر فيك بعد أن تقف لتفتّش عنه وتكشفه .

وإذا كان القدماء يؤثرون الجزالة فى الألفاظ ، فإنّ « القاضى » يرى الزمن قد تغيّر ، كما أسلفنا ، وهو لذلك يؤثر السّهل الرّشيق من الأساليب ، ولكنه لا يريد بالسّهل الضّعيفَ الرّكيكَ ، ولا بالرّشيق الخنثَ المؤنثَ ، بل يريد النمط الأوسط : ما ارتفع عن الساقط السّوقى ، وانحطّ عن البدوىّ الوحشىّ (٢).

كما يرى أنّ الأساليب يجب أن تتنوّع بتنوّع الأغراض والمقاصد (٣).

ويؤثر القاضى الأسلوب الطبيعى يسترسل فيه صاحبه مع الطبع ، ويتجنب الحمل على نفسه والعنف بها (٤). وقد يتوهم من ذلك أن الكلام الجيّد ما خرج عن طبع صاحبه ، وإن لم يكن هذا الطبع مهذّباً مصقولا ، فقال : « ولست أعنى بهذا كلّ طبع ، بل المهذّب الذى صقله الأدب ، وشحذته الرّواية ،

(١) الوساطة ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) الوساطة ص ٢٣ .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) الوساطة ص ٢٤ .

وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرّدىء والجيد ، وتصوَّرَ أمثلة الحسن والقبح»[1].

وبرغم أنّ القاضى ، ربما وجد فى الشعر الذى عنى صاحبه بإدخال الصناعة فيه جمالاً وفنوناً من الحسن ، يرتاح أكثر ما يرتاح إلى الأسلوب البعيد عن الصنعة والزّخارف ، فتراه يروى قول أبى تمام :

دعنى وشرب الهوى ، يا شارب الكاس ... فإننى للذى حسّيته حاسى
لا يوحشنّك ما استعجمت من سقمى ... فإن منزله من أحسن الناس
من قطع ألفاظه توصيلُ مهلكتى ... ووصلُ ألحاظه تقطيع أنفاسى
متى أعيش بتأميل الرّجاء إذا ... ماكان قطع رجائى فى يدىْ ياسى

فإنه علّق على هذه الأبيات، فقال : «لم يخل بيت منها من معنى بديع ، وصنعة لطيفة ؛ طابق ، وجانس ، واستعار ؛ فأحسن ؛ وهى معدودة فى المختار من غزله ، وحقّ لها ؛ فقد جمعت على قصرها فنوناً من الحسن ، وأصنافاً من البديع ؛ ثم فيها من الإحكام ، والمتانة ، والقوة ما تراه ؛ ولكننى ما أظنك تجد له من سورة الطرب ، وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب :

أقول لصاحبى والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار[2] :
تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار[3]
ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريّا روضه غِبَّ القِطار[4]
وعيشُك إذ يحل القوم نجداً ... وأنت على زمانك غير زار[5]
شهور ينقضين ، وما شعرنا ... بأنصاف لهنّ ولا سِرَار[6]
فأما ليلهن فخير ليل ... وأقصر ما يكون من النهار

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) المنيفة : ماء لتميم . والضمار : موضع .
(٣) الشميم : مصدر شم . والعرار : زهر أصفر طيب الرائحة .
(٤) نفح الطيب : انتشرت رائحته . والريا : الريح الطيبة . وغب : بمعنى بعد . والقطار : جمع قطر ، وهو : المطر .
(٥) زرى عليه عمله : عابه عليه .
(٦) السرار : آخر ليلة من الشهر .

فهو ، كما تراه بعيد عن الصّنعة . . . سهل المأخذ ، قريب التناول[1] .

والقاضى يثنى على الشعر إذا خلا من الصنعة وبعد عن البديع[2] .

ويرى أن ألوان البديع التى كانت تقع فى شعر القدماء كان لها جمالها ، وتميّز أبياتها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف ؛ لأنها كانت تقع على غير تعمد وقصد ، بل اتفاقاً فى البيت بعد البيت ؛ وإنما الذى أفسدها هو تكلف المحدثين الاحتذاء عليها ، والقصد إليها ، فأحسن بعض ، وأساء آخرون[3] .

وقد أورد القاضى بعض ألوان البديع ؛ من طباق ، وجناس ، وتقسيم ، وغيرها ، وهو لا يحمدها إلا إذا جاءت غير متكلّفة ، « فمع التكلف المقت ، وللنفس عن التصنعّ نفرة ، وفى مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرّونق ، وإخلاق الدّيباجة »[4] .

الأسلوب الجيدّ عند القاضى هو الذى خلا من التعقيد ، وفساد الترتيب ، واضطراب النسج والغموض ، ولذلك كانت هذه العيوب مجال وقفات منه فى شعر المتنبى يلتمس له فيها المعاذير[5] . وبعضها مما عيب به أبو تمام[6] .

وقد سبق أن بينا رأيه فى غموض أبيات المعانى « فليس فى الأرض بيت من أبيات المعانى لقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر ، ولولا ذلك لم تكن إلا كغيرها من الشعر ، ولم تفرد فيها الكتب المصنّفة ، وتشغل باستخراجها الأفكار الفارغة »[7] .

ولأوّل مرة يصدر القاضى الجرجانىّ مثل هذا الحكم العام الذى تحرّز من مثل إصداره فى موضع آخر ؛ لأنه لم يطلع على شعر الأوائل والأواخر[8] .

(١) الوساطة ص ٣١ – ٣٢ .
(٢) الوساطة ص ٣٠ .
(٣) الوساطة ص ٣٣
(٤) الوساطة ص ١٨ .
(٥) الوساطة ص ١٧٥ .
(٦) الوساطة ص ٤٣١ .
(٧) الوساطة ص ١٥٦ . .
(٨) الوساطة ص ٢٢ .

وأغلب الظنّ أنّ القاضي الجرجانيّ عمّم حيث ينبغي التخصيص ؛ لأننا إذا عددنا من أبيات المعاني حكم المتنبي وحكم غيره من الشعراء ، وجدنا كثيراً منها واضحاً لا يكلفنا عناء البحث والتنقيب .

وللقاضي الجرجاني بعد ذلك رأى في القصيدة المثلى ، فهي التي ترى فيها « تناسب أبياتها وازدواجها ، واستواء أطرافها واشتباهها ، وملاءمة بعضها لبعض ، مع كثرة التصرف على اختلاف المعاني والأغراض » [١].

ولعله يقصد بتناسب الأبيات وازدواجها ، التحام معانيها ، وشدة تماسكها ، ويريد باستواء الأطراف واشتباهها ، وحدة نسج القصيدة من أولها إلى آخرها ، حتى يشبه بعضها بعضاً ، وذلك كله برغم اختلاف المعاني والأغراض .

(د) السرقة في الشعر :

يعدّ القاضي الجرجاني التعمق في معرفة هذا الباب ضرورياً لمن يريد أن يعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر [٢].

وخلاصة رأيه في ذلك :

١ — أن الأمور المتقررة في النفوس ، التي يشترك فيها الشاعر والمفحم ، كتشبيه الحسن بالشمس والبدر ، لا سرقة فيها ؛ لأنها مشترك عام الشركة [٣].

٢ — وإن كان المعنى مخترعاً مبتدعاً ، ولكنه صار مستفيضاً متداولا ، لا يعد مسروقاً كذلك ، لأنه استفاض على ألسن الشعراء . كتشبيه الفتاة بالغزال في جيدها وعينيها [٤].

---

(١) الوساطة ص ٣٠ .
(٢) راجع ما اقتبسناه من هذا الفصل في « منتخبات من آثاره » .
(٣) الوساطة ص ١٧٩ — ١٨٠ .
(٤) الوساطة ص ١٧٩ — ١٨٠ .

٣ — وتفاضل الشعراء في هذه المعاني المتداولة بزيادة يهتدي إليها أحدهم دون غيره ؛ فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع . وبهذه الزيادة يصبح ملكاً لصاحبه ، فإذا أخذ منه عد مسروقاً ، وذلك كقول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها ... زُبُرٌ تجدّ متونها أقلامها [١]

والشعراء يشجعون على مثل هذه الزيادة ، ويمدحون بها [٢].

٤ — وإذا أخذ الشاعر معنى لغيره فزاد فيه زيادة حسنة ، أو اختصره إن كان مطوّلا — فلا عيب عليه فيما فعل ، فإذا سمعت مثلا قول أبي دهبل الجمحي :

وكيف أنساك ؟! لا أيديك واحدة ... عندي ، ولا بالذي أوليت من قِدَم

علمت أنه من قول النابغة :

أبي غفلتي أني إذا ما ذكرته ... تقطع حزن في حشا الجوف داخل
أن تلادي إن نظرت ، وشكّتي ... ومهري ، وما ضمت إليّ الأنامل [٣]
وحباؤك ، والعيس العتاق كأنها ... هجانُ المها تردي ، عليها الرحائل [٤]

قال القاضي : « فإذا أنصفت أبا دهبل عرفت فضله ، وشهدت له بالإحسان ؛ لأنه جمع هذا الكلام الطويل في : « لا أيديك واحدة عندي » ؛ ثم أضاف إليه : « ولا بالذي أوليت من قدم » ؛ فتم المعنى ، وأكّده أحسن تأكيد [٥].

٥ — وإنما العيب نقل المعنى والكثير من الألفاظ [٦].

---

(١) الوساطة ص ١٨١ — ١٨٢ . وجلا عن بلده : خرج . والزبر : جمع زبور ، وهو : الكتاب . وتجد : من التجديد . والمتون : جمع متن ، وهو الظهر .
(٢) الوساطة ص ١٨٣ .
(٣) التلاد : المال كان أو ولد في بيتك من قديم . والشكة : السلاح .
(٤) الحباء : العطية . والعيس : كرام الإبل . والهجان : الخيار . والمها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . وردت الفرس : رجمت الأرض بحوافرها في سيرها .
(٥) الوساطة ص ١٨٣ ، وستعود إلى مناقشة القاضي في ذلك عند الحديث عن ذوقه .
(٦) الوساطة ص ١٨٥ .

٦ – على أنه ينبغى ألا يقصر الناقد السرقة على ما ظهر دون ما كمن ؛ بل عليه أن يدرك تناسب قول لبيد :

وما المالُ والأهلون إلاّ ودائع ... ولا بدّ يوماً أن تُرَدّ الودائع

وقول الأفوه الأودى :

إنما نعمة قوم مُتعةٌ ... وحياة المرء ثوب مستعار

وإن كان هذا ذكر الحياة ، وذلك ذكر المال والولد ؛ وكان أحدهما جعل وديعة، والآخر عارية [١].

ويعرف تفنن الشعراء فى السرقة ، فيكون البيت فى النسيب ، فيأخذ الشاعر معناه فى بيت مدح مثلا ، فقول كثير فى الغزل :

أريد لأنسى ذكرها ، فكأنما ... تمثل لى ليلى بكل سبيل

أخذ معناه أبو نواس فقال مادحاً :

ملك تصور فى القلوب مثاله ... فكأنه لم يخل منه مكان [٢]

بل إن من لطيف السرقة ما جاء على سبيل القلب كقول المتنبى :

أأحبه وأحب فيه ملامة ... إن الملامة فيه من أعدائه

نقض به قول أبى الشيص :

أجد الملامة فى هواك لذيذة ... حبّاً لذكرك، فليلمنى اللوّم [٣]

٧ – ومن الواجب على الناقد أن يتثبت قبل أن يحكم بالسرقة [٤]، وألا يحكم بها لمجرد التشابه بين الألفاظ [٥] ، أو للعصبية والهوى [٦].

٨ – ويرى القاضى أن السرقة داء قديم ، وكان أكثره ظاهرًا كالتوارد ، ثم تفنن المحدثون فى إخفائه بالنقل والقلب وغيرهما ؛ ويلتمس القاضى العذر

(١) الوساطة ص ١٩٥ .
(٢) الوساطة ص ١٩٩ .
(٣) الوساطة ص ٢٠٠ .
(٤) الوساطة ص ٢٠٠ و ٢٠٨ .
(٥) الوساطة ص ٢٠٢ .
(٦) المرجع السابق نفسه .

لأهل عصره ومن جاء بعده إذا أخذوا عن السابقين : « لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى ، وسبق إليها ، وأتى على معظمها » [١].

٩ – ومن أكبر العيوب عند القاضى الجرجانى السرقة والتقصير [٢] .

وإذا ذكرنا القيد الذى ذكره القاضى الجرجانى من ضرورة الزيادة فى المعنى ، أو التجويد فى الأسلوب ، أدركنا أنه لا يمنع استفادة المحدث من أفكار سابقيه ، على ألا يكون كلا عليهم ، بل عليه أن يضيف إلى الميراث القديم جديداً ، فتنمو المعانى مع الزمن ، وتتجدد الأساليب .

كما أن فى دعوته إلى البحث عن السرقات الخفية ، وفى عيبه أن يعيش الشاعر على فتات موائد سواه – دعوة للشعراء إلى الاعتماد على أنفسهم ، والتفتيش عن مواهبهم ، حتى يبتكروا المعانى ، وينقبوا عنها .

(هـ) مذهبه التأثرىّ والذوق :

يعتمد القاضى الجرجانى اعتماداً كبيراً فى تقدير الأثر الأدبى على ما يحدثه هذا الأثر فى النفس ، ويقيس الجودة بمقدار هذا الأثر ، كما يقيس الرداءة بمدى نبوّ القلب ونفوره ؛ فتسمعه يقول معلقاً على أبيات فى الغزل للبحترى : « تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده ، وتفقّد ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفك من الطرب ، إذا سمعته ، وتذكر صبوة إن كانت لك ، تراها ممثلة لضميرك ، ومصورة تلقاء ناظرك » [٣].

فهو يعتمد ، كما ترى ، على مقدار إحساس السامع بالطرب ، ومدى إثارته لعواطفه ، ولعل القاضى يرى أن سبب هذه الإثارة ، هو أن الأثر الأدبى يصور شعور السامع ، ويعيد إليه صوراً كامنة فى نفسه .

(١) الوساطة ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .
(٢) الوساطة ص ٣٧ .
(٣) الوساطة ص ٢٦ .

ويقول فى موضع آخر متحدثاً عن أبيات جيدة وأخرى رديئة : « إنه يميَّز بقبول النفس ونفورها ، وينتقد بسكون القلب ونبوّه » (١).

ولذلك أشاد القاضى الجرجانى بجمال الأسلوب ؛ لأنه أول ما يفجأ القارئ كما سبق أن ذكرنا .

والشعر لا يؤثر فى النفوس إذا احتاج إلى الجدل والمحاجّة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقربه منها رونقه وحلاوته (٢).

والذى يحكم بجودة الشعر أو رداءته إنما هم النقاد الذين أوتوا ذوقاً صقله التهذيب وإدمان الرياضة ، ووهبوا دقة فى الفطنة ، وصفاء فى القريحة ، ومقدرة على الغوص ؛ فلكل صناعة أهل يرجع إليهم فى خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها ؛ فقد يكون الشىء متقناً محكماً ، ولا يكون حلواً مقبولا ، ويكون جيداً وثيقاً ، وإن لم يكن لطيفاً رشيقاً ، وقد نجد الصورة الحسنة والخلقة التامة مقلية ممقوتة ، وأخرى دونها مستحلاة موموقة(٣). والحكم فى ذلك إنما هم أهل الصنعة المدربون .

ويعتمد هؤلاء النقاد فى إصدار أحكامهم على ما منحوه من الذوق المرهف ، الذى أدمن على مخالطة النصوص الأدبية ، والتعرف على ما فيها من أسباب الجمال ؛ وهم لذلك يستطيعون تقويم الشعر ، ومعرفة جيده ورديئه .

وهؤلاء النقاد قد تمكنهم الحجج من إبراز أسباب ما يرون من الصواب أو الخطأ (٤)، والكشف عن أسرار الجمال أو القبح .

وأحياناً يحسون بالأمر فى قلوبهم ، ولكنهم لا يستطيعون الإفصاح عنه بألسنتهم ، كما حدث بين أحد المعترضين على أبى الطيب فى قوله :

(١) الوساطة ص ٤٤٢ .
(٢) الوساطة ص ٩٦ .
(٣) الوساطة ص ٩٦ — ٩٧ .
(٤) الوساطة ص ٤٤٢ .

مسرّةٌ فى قلوب الطيب مفرقُها ... وحسرة فى قلوب البَيْض واليلب(١)

إذ جعل للطيب والبيض واليلب قلوباً ، لأن المتنبى يريد أن يقول : إن قلب الطيب مسرور ، لأنه يخالط مفرق شعرها ، فى حين أن قلب الخوذة والدرع متحسر ؛ لأنها لا تلبسهما ، إذ هى لا تقاتل فى ميدان القتال .

فرد عليه القاضى بأن ابن أحمر يقول :

ولهت عليه كل معصفة ... هوجاء ليس للبّها زَبْرُ(٢)

وما الفصل بين من جعل للريح لبّاً ، ومن جعل للطيب والبيض والدروع قلباً ؟ فلم يحر الخصم جواباً غير أن قال : أنا استَبْرَدْتُ ، ووجدت بين استعارة ابن أحمر للريح لبّاً ، واستعارة أبى الطيب للطيب قلباً بوناً بعيداً ، وربما قصر اللسان عن مجاراة الخاطر ، ولم يبلغ الكلام مبلغ الهاجس(٣).

وقد استطاع القاضى الجرجانى أن يصل إلى الفرق بين الاثنين : « وذلك أن الريح لما خرجت بعصوفها عن الاستقامة ، وزالت عن الترتيب ، شبهت بالأهوج الذى لا مُسْكَةَ فى عقله . . . ولما كان مدار الأهوج على التباس العقل حسن من هذا الوجه أن يجعل للريح عقلا » (٤).

وحيناً يحس الناقد بذوقه الجمال أو القبح ، فإذا سئل عن سبب حكمه أقام السائل مقام المتعنت ، وكان أقصى ما فى وسعه أن يقول : موقعه من القلب ألطف ، وهو بالطبع أليق ، وربما حاجّك بظاهر تحسه النواظر ، وأنت تحيله على باطن تحصّله الضمائر (٥) .

وليس كل ذوق يرضاه القاضى حكماً ، بل الذوق الذى أدمن الرياضة ، وكان صاحبه شديد الفطنة ، صافى القريحة ، بعيد الغوص (٦).

(١) اليلب : الدروع تتخذ من الجلود . والبيض : جمع بيضة ، وهى : الخوذة من آلات الحرب ، لوقاية الرأس . (٢) الوساطة ص ٤٤٣ . وزبره عن الأمر : منعه ، ونهاه عنه .
(٣) الوساطة ص ٤٤٣ . (٤) الوساطة ص ٤٤٤ .
(٥) الوساطة ص ٤٢٧ وارجع إلى النص فى فصل المختار من آثاره .
(٦) المرجع السابق نفسه .

ويرى القاضى الجرجانى أن أشد ألوان النقد هو هذا الذى يحتاج إلى الذوق الموهوب وإدمان الرياضة . أما أقل الناس حظاً فى النقد فهؤلاء الذين يقفون عند الأمور التى لا تحتاج إلى ذوق كالاقتصار على سلامة الوزن ، وإقامة الإعراب ، وأداء اللغة ، وما فى الكلام من تجنيس وترصيع ومطابقة ، أو عند المعانى الغامضة ، لا يبالى ظهورها فى نظم مضطرب ، أو نسج مهلهل ، لا يقابل بين الألفاظ والمعانى ، ولا يرى الحسن إلا ما أفاده البديع وما جاء به التصنيع (١) .

ويكاد نقاد العرب يجمعون على أن الذوق المهذب المثقف هو الفيصل فى الحكم على النصوص الأدبية ، وإلى هذا الحد يقف القاضى الجرجانى ، حتى إذا جاء عبد القاهر لم يقف عند هذا الحد ، بل رأى أنه لا بد لكل كلام تجده حسناً من أن يكون لهذا الحسن مصدر معلوم ، وعلة معقولة ، وأن يكون هناك سبيل إلى التعبير عنه ، ودليل على صحة ما ادعيته ؛ ويرى أن الإيمان بذلك يفتح باباً تطلع منه على فوائد جليلة ، ويجعلك على بينة من العلم ؛ فلا تقبل دعوى من غير برهان ، ولا تدلى بحكم بلا دليل ، ولا يسألك السائل عن حجة يرد بها على الخصم ؛ فلا ينصرف عنك بما يقنعه ، ويكون كل ما يجده منك أن تحيله إلى نفسه ، وتقول له : إننى نظرت ، فرأيت فى الكلام فضلا ومزية ، ووجدت لذلك أريحية ؛ فعليك أن تنظر ؛ لتعرف كما عرفت ؛ وينتج من ذلك أنه إذا استطاع أن يصل كما وصلت ، فقد آمن بما آمنت ، وإلا تناكرتما ، وكان فى نظرك ضعيف التأمل ، سيئ الاستنباط ، فاسد الذوق ، وكنت فى نظره فاسد التخيل .

ويؤكد عبد القاهر أنه من الآفة الزعم بأنه لا سبيل إلى معرفة العلة فيما به كان الكلام الجميل جميلا ، ويرى ذلك توانياً وكسلا من الناقد ، وأن عليه أن يبحث عن السبب حتى يهتدى إليه .

(١) الوساطة ص ٢٢٤ — ٢٢٦ .

ومع أن عبد القاهر يعلم أن الناقد أحياناً لا يستطيع أن يصل إلى معرفة سبب الجمال — لا يرى ذلك وسيلة لليأس من الوصول إليه ، ويدعو إلى أن يتخذ المرء ما يعرف وسيلة إلى ما لا يعرف ، وذلك أحرى من أن يسد باب المعرفة على نفسه ، ويمنعها من الفهم والتفهم ، ويعودها الكسل والهوينى (١) .

فليت شعرى أكان عبد القاهر يحذر من رأى أستاذه : القاضى الجرجانى من أن السائل عن أسرار الجمال متعنت . وأن ذلك أمر سبيل إدراكه البصيرة ، وقلما استطاع أن يفصح عنه اللسان (٢) .

إننا من غير ريب ننتقل مع عبد القاهر خطوة إلى الأمام فى النقد الأدبى إذ نحاول معرفة الأسباب ، ووضع القواعد لهذا الفن الرفيع .

٣ — ذوق القاضى الجرجانى

للقاضى الجرجانى ذوق صائب غالباً فيما يختاره للشعراء من جيد الشعر ورديئه ، بل إنه عند رديء الكلام يطلب إلى السامع أن يسد مسامعه ، ويستغشى ثيابه ، حتى لا يرى ولا يسمع (٣) ؛ وعند القول الجيد يعجب به الإعجاب البالغ ، ولنصغ إليه يعرض قصيدة لأبى تمام جمعت بين الجيد والردىء فيدل فى حكمه على ذوق نقى ممتاز ، فيقول : « ربما افتتح الكلمة وهو يجرى مع طبعه ، فينظم أحسن عقد ، ويختال فى مثل الروضة الأنيقة ، حتى تعارضه تلك العادة السيئة (٤) ، فيتسنم أوعر طريق ، ويتعسف أخشن مركب ، فيطمس تلك المحاسن ، ويمحو طلاوة ما قد قدم ؛ كما فعل أبو تمام فى كثير من شعره ، ومنه قوله :

(١) عبد القاهر الجرجانى ص ٨٩ — ٩٣ ، راجع إلى دلائل الإعجاز ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٢٢٦ وأسرار البلاغة ص ٢٦٢ .
(٢) راجع نص القاضى الجرجانى فى فصل المنتخبات من آثاره . والوساطة ص ٤٢٦ .
(٣) الوساطة ص ٤٠ . (٤) يريد عادة الرغبة فى الاقتداء بالأوائل .

أو حار مرتاد المنية لم يجد ... إلاّ الفراق على النفوس دليلا
قالوا: الرّحيل ، فما شككت بأنها ... نفسى من الدنيا تريد رحيلا
الصبر أجمل غير أنّ تلذّذاً ... فى الحب أحرى أن يكون جميلا
أتظننى أجد السبيل إلى العزا ... وجد الحمام إذاً إلىّ سبيلا
ردُّ الجموح الصعب أسهل مطلباً ... من رد دمع قد أصاب مسيلا
إنى تأملت النوى ، فوجدتها ... سيفاً على أهل الهوى مسلولا

يقول القاضى : « فهو ، كما تراه ، يعرض عليك هذا الديباج الخسروانى ، والوشى المنمنم ، حتى يقول :

لله درك أى مِعْبَرِ قفرةٍ ... لا يوحش ابن البيضة الإجفيلا [١]
أوَ ما تراها ؟ لا تراها هزة ... تشأى العيون تعجرفاً وذميلا [٢]

فنغّص عليك تلك اللذة ، وأحدث فى نشاطك فترة [٣] .

والقاضى الجرجانى يقف عند هذه الحدود ، لا يتجاوزها إلى بيان الأسرار ، وتحليل الأسباب التى من أجلها استحسن ذوقه أو استهجن .

وهو مصيب فيما يهديه إليه ذوقه من القواعد ، ولكن لك أن تأخذ على هذا الذوق أنه أحياناً لا يكون صائباً فى حكمه على الشعر ؛ فقد رأيناه مثلا يدعو إلى الاسترسال مع الطبع ، ونبذ التكلف ، وهو محق فيما يدعو إليه ، ولكننا رأيناه يمدح قطعة أبى تمام : « دعنى وشرب الهوى يا شارب الكاس . . . » [٤] وهى مقطوعة غلبت فيهـا الصناعة ، حتى طمست المعنى ، وأزهقت روحه ، فبدا تافهاً هزيلا . وخذ لذلك مثلا شرب الهوى ، والشاعر جاء به

(١) قال محققا الوساطة نقلا عن التبريزى : خرج إلى صفة الناقة بغير ذريعة إلى الخروج ؛ يقول : لله درك أيتها الناقة أى معبر قفرة أنت ، أى تعبر عليك القفرة ، ولا يوحش هذا المعبر ابن البيضة ، أى الظليم ، والإجفيل : الكثير الإجفال .

(٢) قال المحققان أيضاً : التعجرف : النشاط فى السير . والذميل : نوع من السير ، وتشأى : تسبق .

(٣) الوساطة ص ٢١ — ٢٢ .

(٤) راجع ص ٥٨ من هذا الكتاب .

ليتجانس مع شارب الكاس ، والهوى يغزو القلوب ويأسرها ، ولكن الناس لا يشربونه ، وزاد الشاعر الأمر كرباً عندما جعل نفسه تحسو الهوى كما يحسو شارب الخمر كأسه ، ولم يدفعه إلى ذلك إلا رغبة فى التجنيس المتكلف .

وقف فى البيت الثانى عند استعجام سقمه ؛ لتبحث طويلا عن معناه ، وربما أراد به عدم إدراك سببه ، وعند الشطر الثانى ، لتعرف أن المنزل هنا مصدر ميمى بمعنى النزول ، ومن للسببية ، وأن المعنى : السقم الذى حل به ولم يعرف صاحبه سببه إنما نزل به من أجل أحسن الناس ؛ فأى وقفة طويلة ، وأى معنى تافه .

وفى البيت الثالث طباق تلمّسه الشاعر فى الشطرين ، ولكنّك لا تدرى معنى لقطع الألفاظ ، ووصل الألحاظ ، إلا أنها مثال للطباق والجناس .

والبيت الرابع معناه : متى أرجو إذا كان اليأس مستولياً على قطع الرجاء ، ويئول المعنى إلى : متى أرجو إذا كنت يائساً ، وليس هو بمعنى ذى قيمة يستحق أن يكون شعراً ، وليس فى البيت سوى هذا الطباق بين اليأس والرجاء .

كما أنه عد من الشعر الجيد قول الشاعر :

والورد فيه كأنما أوراقه ... نزعت ، وردّ مكانهن خدود

فقد علق عليه بقوله : « لم يزد على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت إذا قسته إلى غيره وجدت المعنى واحداً ، ثم أحسست فى نفسك عنده هزة ، ووجدت طربة تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها » [١] .

ولست أدرى من أين تأتى الهزة ، أو توجد الطربة ، ومجرد الشعور بانتزاع أوراق الورد يثير فى النفس الألم ، ويصوّر لها منظراً حزيناً لا يخفف منه أن يوضع مكان الأوراق خدود .

(١) الوساطة ص ١٨٣ .

وإذا كان التشبيه يراد به أن يكون مصباحاً يضىء فكرة الشاعر ، وينقل إحساسه إلى غيره من السامعين فإن تصوّر الخد مقتطعاً من الجسم وموضوعاً مكان أوراق الورد ، لا يؤدى رسالة التشبيه فى تعميق الإحساس ، وتصوير الشعور ؛ لأن الناس لم يألفوا رؤية هذا المنظر .

ولذلك لا أوافق القاضى الجرجانى فى استحسان قول علىّ بن الجهم :

عشية حيانى بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض[1]

لأن الناس لا يرون فى الطبيعة خدوداً يضاف بعضها إلى بعض .

ولكنه كان دقيق الملاحظة عندما أورد قول ابن المعتز :

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرّت من الخجل الخدود

فإنه رأى أن الشاعر لو اتفق له أن يقول : حمرة فى جوانبها بياض ، لكان قد طبّق المفصل ، وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل [2] .

ولكنه إذا كان لنا أن نعترض على ذوقه فى بعض ما استحسنه أو استقبحه ، فإن النتائج التى وصل إليها صحيحة مسلم بها فى أغلب الأحيان .

٤ ـ أسلوبه

طبق القاضى الجرجانى نظريته فى الاسترسال مع الطبع على نثره ، فترك قلمه على سجيته ، مؤثراً الحرية فى الصياغة الفنية ، لا يلتزم سجعاً ولا ازدواجاً ، إلا حيث يجيئان طبيعيين ، لا تكلف فيهما ، ولا إسراف .

وإذا كان فى كتاب الوساطة شىء من السجع ، فإنك تلمس أنه لم يجئ مقتسراً فى مكانه ؛ على أنه لم يلتزمه ، كقوله : « كم من فضيلة لو لم تستثرها المحاسدة لم تبرح فى الصدور كامنة ، ومنقبة لو لم تزعجها المنافسة لبقيت

(١) الوساطة ص ١٨٢ .
(٢) المرجع السابق نفسه .

على حالها ساكنة ! لكنها برزت ، فتناولتها ألسن الحساد تجلوها ، وهى تظن أنها تمحوها ، وتشهّرها ، وهى تحاول أن تسترها ؛ حتى عثر بها من يعرف حقها ، واهتدى إليها من هو أولى بها ، فظهرت على لسانه فى أحسن معرض ، واكتست من فضله أزين ملبس ، فعادت بعد الخمول نابهة ، وبعد الذبول ناضرة ، وتمكّنت من بر والدها ، فنوّهت بذكره ، وقدرت على قضاء حق صاحبها ، فرفعت من قدره : « وعسى أن تكرهوا شيئاً ، وهو خير لكم » [1] .

ولكن القاضى لا يلبث أن يدع قلمه يسترسل كما يشاء ، وينسى السجع وغيره من ألوان الزخارف .

وقد احتفظ القاضى الجرجانى فى ذلك بشخصيته ، فلم يتأثر فى ذلك بالصاحب بن عباد الذى كان ولوعاً بالسجع إلى درجة سبق بها جميع من تقدمه من الكتاب [2] ؛ ولا بغيره من الكتاب الذين التزموا السجع لا يخرجون عنه إلا قليلا ، كبديع الزمان والخوارزمى ، ولا الذين يؤثرون الازدواج ، ويسجعون من حين إلى حين كابن العميد .

ولم يكن القاضى وحده فى عصره هو الذى تحرّر من ربق السجع ، بل كان من المتحرّرين كذلك المرزبانىّ صاحب الموشح ، والأصفهانىّ صاحب الأغانى[3] .

وما بقى من كتاب « تهذيب التاريخ » يجرى أيضاً على طريقة الاسترسال الذى لا يعرف السجع ، ولا يعنى بغيره من باقى المحسنات [4] .

وأريد أن أضيف إلى وصف خصائص أسلوبه أن العبارات القضائية تندس فيه هنا وهناك ؛ فتسمعه يقول : « عجّلت بالحكم قبل استيفاء الحجّة ، وأبرمت

(١) الوساطة ص ١ .
(٢) الصاحب بن عباد ص ١٣١ .
(٣) النثر الفنى ١ : ١١٣ .
(٤) راجع جزءاً من هذا الكتاب فى فصل المختار من آثاره .

القضاء قبل امتحان الشهادة » (١) ، ويقول : « قد وفينا لك بما اقتضاه شرط الضمان ، وزدنا ، وبرأنا إليك مما يوجبه عقد الكفالة ، وأفضلنا » (٢)، ويقول « ومن أنصف حـَجـَزه حضور البيّنة عن المنازعة » (٣).

٥ ــ منهجه فى كتاب الوساطة

وضع القاضى الجرجانىّ كتاب الوساطة رسالة واحدة ذات مقالة واحدة لا أبواب فيها ولا فصول ؛ بدأها بالحديث عن التّفاضل ، وأنه داعية التنافس، وهو سبب الحسد ، مع أن واجب العلماء والأدباء أن يتواصلوا ، ويحمى بعضهم عرض بعض ، وأن يعدلوا فى أحكامهم (ص ١ ــ ٢) .

ثم ذكر موقف أهل الأدب من المتنبى ، وأنهم فئتان : واحدة تطنب فى تقريظه ، وأخرى تجتهد فى إظهار عيوبه ، وإخفاء محاسنه . مع أن لكل عالم هفوة، ولكلّ شاعر سقطة . وهنا يورد عدداً من أغاليط الشعراء (ص ٣-١٤).

ويتحدث بعدئذ عن الشعر ، ولِمَ يتفاوت الشعراء فى الجودة والإحسان . وأن الشعر يختلف باختلاف البيئة والطبائع ، وأن محاولة التكلف مفسدة للشعر . كما فعل أبو تمام (ص ١٤ ــ ٢٢) .

ويصف المؤلف الأسلوب الممتاز عنده ، ويورد أمثلة لهذا الأسلوب من شعر البحترى ، وشعر جرير . ويتحدث عما يرد فى الأسلوب من ألوان البديع ، وكيف تكون الاستعارة حسنة حيناً وسيئة حيناً آخر (ص ٢٣-٤٧) .

ولكن القاضى الجرجانى لا يكثر من الحديث على المحسنات البديعية ، لأن المتنبى لم يكن من المغرمين بها ، وإنما كانت تجىء منه عفواً ، ولكنه

(١) الوساطة ص ٧٩ .
(٢) الوساطة ص ١٧٣ .
(٣) الوساطة ص ٤٣٣ .

[يكث]ر من الحديث على الاستعارة ، لأن أبا الطيب نُسب إليه كثير من [الا]ستعارات الرّديئة ، وكانت الاستعارة شائعة فى أشعاره .

وكل ذلك مقدّمات يمهّد بها المؤلف لحديثه عن المتنبى وخصومه .

ويذكر أنّ خصومه رجلان : أحدهما لا يعترف بفضل المحدثين ؛ [وثا]نيهما يظلم المتنبى لأنه يعترف بفضل بعض المحدثين ، ولكنه ينكر فضل [أبى] الطيب ؛ وهنا يورد المؤلف بعض كبار الشعراء المحدثين ؛ ليبين نقائصهم [(]ص ٤٨ ــ ٧٨) .

ويذكر ما عيب به شعر المتنبى ، ويأتى بأمثلة كثيرة من شعره المعيب [(]ص ٧٩ ــ ٩٧) .

ويعقب على ذلك بإيراد أمثلة من شعره الجيّد ، ويورد من ذلك قدراً [ك]بيراً (ص ٩٧ ــ ١٧٤) .

ويعود إلى عيب السرقة . فيقف محدّداً لها ، مبيناً متى تكون ، ومتى لا يتهم [ال]شاعر بها ، ويضرب أمثلة كثيرة من سرقات الشعراء ، ويذكر رأيه فى [ال]سرقة (ص ١٧٤ ــ ٢٠٨) .

ويورد ما نسب إلى أبى الطيب من السرقات ، معلقاً عليه أحياناً ، وصامتاً [أ]حياناً كأنه يقرّر السرقة بهذا الصمت (ص ٢٠٩ ــ ٤٢٥) .

ويعود المؤلف لاستكمال بعض المآخذ على أبى الطيب ،ويلتمس المعاذير له [(]ص ٤٢٨ ــ ٤٤٦) .

ويأخذ بعدئذ فى دراسة موضعيّة ، يعرض فيها بعض الأبيات التى عيبت [ع]لى المتنبى ، ويدرسها بيتاً بيتاً ، ملتمساً العذر له فى كثير ممـا وقع فيه [(]ص ٤٤٦ ــ ٤٩٢) .

ويبدو من عرضنا لكتاب الوساطة أنه متماسك مرتبط الأجزاء بعضها ببعض، وأنّ المقدّمات التمهيدية التى تحدّث فيها عن تطور الشعر لها صلة وثيقة

بالمتنبى ؛ لأنها ترى أنه من الخطأ قياس المتنبى بالشعراء الأقدمين ، وإنما يقاس ، إذا توخّينا العدالة ، بأمثاله من الشعراء المحدثين .

كما يبدو أن مؤلّف الكتاب جعل دفاعه عن المتنبى ألواناً ثلاثة :

أولها : مبدأ المقاصّة ، أى وزن الحسنات بالسيئات لنرى أن جانب الحسنات أرجح .

وثانيها : أن أمثاله من عظماء الشعراء المحدثين لهم مثل أغلاطه ، فلم ينفرد دونهم بالحساب والمؤاخذة وإغفال أمر الجيد من شعره .

وثالثها : التماس الأعذار فيما أخطأ فيه إن كان له عذر .

كما يبدو أيضاً أنّ المؤلف أطال الوقوف عند ما أُخِذَ على أبى الطيب ، يبين عيوبه ، ويذكر ما قد يكون له من توجيه ، وإذا طبقنا رأى المؤلف فى أن الشعر لا يكون مقبولا بالمحاجة والمخاصمة ، أدركنا أنّ هذا الشعر الذى دافع عنه القاضى لا يمكن أن يرتفع إلى درجة الشعر الجيد .

ولم يقف المؤلف عند الشعر الجيد لأبى الطيب يبين أسباب روعته ، ونواحى الجمال فيه ، ولو أنه فعل لكان ذلك من أقوى وسائل الدّفاع عن المتنبى ، وكان المجال واسعاً أمامه للموازنات بينه وبين غيره . وإنه حتى فى الموازنات القليلة التى عقدها بينه وبين غيره ، لم يقف طويلا ؛ ليبين فضل أبى الطيب ، ومقدار سموّه فى الناحية التى اتجه إليها ، ولكنه كان يلمس ذلك لمسات مسرعة .

٦ — شعره

كان القاضى الجرجانىّ يعدّ نفسه من أهل الأدب (١) ؛ فكان له رأيه فى علم من أعلام الشعر هو المتنبى ؛ ويعدّ نفسه شاعراً شرود الشعر ، يعجب الناس بشعره ، ويستعيرون منه ما راقهم :

(١) الوساطة ص ٣ .

ولكنّنى أرمِى بكلّ بديعة   يبتن بألباب الرّجال لواعبا
تسير ، ولم ترحل ؛ وتدنو ، وقد نأت   وتكسب حُفّاظ الرّجال المراتبا
ترى الناس : إمّا مستهاماً بذكرها   ولوعاً ، وإما مستعيراً وغاصبا (١)

وكان مثله الأعلى فى الشعر أن يجمع بين أبى تمام والبحترى ، فيأخذ من الأوّل دقة المعنى ، ومن الثانى السّهولة والرّقة :

أحيت حبيباً والوليد ، ففصّلا   منها وشائع (٢) نسجها تفصيلا
فأفادها الطائىّ دقة فكره   والبحترىّ دماثة وقبولا (٣)

وبالشعر سجل رأيه فى الشعر الرائع القوىّ ؛ فرأيناه يقيسه بمقدار ما يتركه فى النفس من أثر ؛ وهو يذكرنا بمذهبه التأثرى الذى سبق أن شرحناه ، فليس الشعر إلا ما أثار عواطف الممدوح ، ووجد فيه المشتاق صدى لعواطفه ومشاعره ، ومسح على قلب الغاضب ، فألانه وأرضاه ، وكما صرّح فى الوساطة برأيه فى الشعر الجيّد ، وأنه الذى يسترسل فيه صاحبه مع الطبع ، لا يقتسر الأسلوب ، ولا يتكلف العبارات تكلفاً ؛ وندّد بصنف من الشعراء يجعلون همّهم اقتناص القوافى ، واتخاذها نبراساً يقودهم إلى النظم ، فيكون عملهم نظم أبيات لا يجمع بينها جامع ، ولا يربطها معنى ؛ وبصنف آخر يرضى بميسور القول ، ويقنع بالضعيف . وترى ذلك إذ يقول :

وما الشعر إلا ما استفزّ ممدّحا   وأطرب مشتاقاً ، وأرضى مغاضبا
أطاع ؛ فلم توجد قوافيه نفّراً   ولم تأته الألفاظ حسرى لواغبا (٤)
وفى الناس أتباع القوافى : تراهمُ   يبثّون فى آثارهنّ المقانبا (٥)
إذا لحظوا حرف الرّوىّ تبادروا   وقد تركوا المعنى مع اللفظ جانبا

(١) يتيمة الدهر ٤ : ١٩ .
(٢) الوشائع : جمع وشيع ، وهو : علم الثوب .
(٣) يتيمة الدهر ٤ : ١٩ . ودمث : سهل . وحبيب والطائى : أبو تمام .
(٤) حسرى : متعبة . واللغب : الإعياء الشديد .
(٥) يتيمة الدهر ٤ : ١٩ .

وإن مُنِعوا حرّ الكلام تطرّقوا   حواشيه، فاجتاحوا الضّعيف المقاربا[١]

ويرى الشعر الرّقيق يفعل بالنفوس فعل الخمر، وإن لم تسكر:

كفتنا حميّا الخمر رقّة لفظها   وأمّنتنا تهذيبُها هفوة السكر

وقد تنوعت أغراض الشعر عنده: بين غزل، ومدح، وشكوى، وإخوانيات وحكمة. ويرقّ شعره عندما تتدفق عواطفه، ويكون هدفه الإفصاح عن وجدانه. وأغلب غزله مقطوعات يعبّر بها عن إحساس بلون من ألوان الجمال، وبرغم قصر هذه المقطوعات تدل على أنّ القاضى من المفتونين بالحسن، المغرمين بالخدود الناضرة، والعيون الساحرة، والقدّ الأهيف، والقبلة الممتعة، وله فى الشوق إلى ديار الحبيب والحنين إلى أيام السعادة بلقياه شعر يفيض حرارة وقوة. وهو يقسم بألوان الجمال عندما يريد أن يؤكد كلامه.

ويسير فى مدحه على النظام التقليدى يبدؤه بالغزل، ويتخلّص منه إلى المدح، وهو يجتهد فى حسن التخلّص، بالربط الوثيق بين الغزل والمدح كقوله:

ولمّا تداعت للغروب شموسهم   وقمنا لتوديع الفريق المغرّب

تلقّين أطراف السجوف بمشرق   لهنّ، وأعطاف الخدور بمغرب[٢]

فما سرن إلا بين دمع مضيّع   ولا قمن إلا بين قلب معذّب

كأنّ فؤادى قِرنُ قابوس راعه   تلاعبه بالفيلق المتأشب[٣]

ويمضى بعدئذ فى مدح قابوس بن وشمكير.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠.

(٢) شرح هذا البيت الأستاذ عبد الخالق عمر (رحمه الله) فى معجم الأدباء ٤ : ٣٠ فقال: السجوف: الستائر. والمشرق: صفة لمحذوف، أى دمع مشرق، من أشرقه، بمعنى أغصه. ومغرب صفة لمحذوف: أى قلب مبالغ فى الحزن. يريد أنهن عند الصعود، وتلقى السجوف بكين؛ فلما صرن فى أعطاف الخدور حزنت قلوبهن، فهى معذبة. والبيت بعده يوضح ما قلنا.

(٣) معجم الأدباء ٤ : ٣٠ والقرن: نظيرك فى الشجاعة. وراعه: أفزعه. والفيلق: الجيش العظيم. والمتأشب: المختلط. يصف فؤاده المضطرب إذ يشتد خفقانه بمنازل قابوس فى ميدان القتال عند ما يفزعه ما يراه من فعل قابوس فى الجيش الضخم المختلط، فإن منازله يشتد خفقان قلبه.

وهو مغرم كثيراً بالتشبيه، ينتقل به من الغزل إلى المدح.

وأكثر ما بقى لنا من مدائحه فى الصّاحب بن عبّاد، يمدحه حيناً ببلاغة القول، وجمعه بين المعانى المبتكرة، والألفاظ المتآلفة؛ وحيناً برفعة المكانة، وأنه يقسم على الورى أرزاقهم، وحيناً يتحدّث عن أفضاله وأياديه التى له فى رقاب الناس، وآناً يثنى على شجاعته وكرمه، وآناً يصف عشق الوزير المجد، وآناً آخر يثنى على خلقه الرّقيق. ومؤرخو الصاحب يؤكدون له هذه الصّفات التى جعلت عهده كما قال القاضى طلقاً طيّب الظلال. كما واسى القاضى الصاحب فى علته، وهنأه بالشفاء من مرضه.

وقد أثنى الثعالبى على الشعر الذى أنشأه القاضى فى الصاحب، وقال عنه: «وسيّر فيه قصائد أخلصت على قصد[١]، وفرائد[٢] أتت من فرد، وما منها إلا صوب العقل[٣]، وذوب[٤] الفضل».

وقلّ مدحه لغير الصاحب، فنراه يثنى على قابوس بن وشمكير بالشجاعة والبلاغة، وعلى بعض ممدوحيه الآخرين بسموّ الخلق، والكرم، وحب المجد، مما لا يخرج عن المدح الموروث.

وإذا كان القاضى فى كتابه الوساطة لا يرضى عن الإفراط فإنه قد وقع فيه فى شعره أحياناً، كقوله مادحاً:

أعدى الأنام طباعه، فتكرّموا   لو جاز أن يدعى سواه كريما[٥]

وقوله فى قصيدة أخرى مادحاً أيضاً:

ما زال فى الناس أشباه وأمثلة   حتّى ظهرت، فغاب الشكل والمثل[٦]

---

(١) أخلصت: دلت على الإخلاص. وعلى قصد: لم يغال فيها.

(٢) فرائد: جمع فريدة، وهى التى ليس لها نظير.

(٣) الصوب: الانصباب، وضد الخطأ.

(٤) الذوب: الخالص.

(٥) يتيمة الدهر ٤ : ١٨.

(٦) المرجع السابق نفسه.

والوصف الذى بقى لنا فى شعر القاضى الجرجانى يأتى فى أثناء شعر المدح ، إلا حين يصف نفسه ، فإنه حينئذ ينشئ الشعر لذلك قصداً .

وقد وصف القاضى روضة جعلها مقدمة لقصيدة مدح ، وجعل وصف الربيع وسيلة للمدح أيضاً ، كما وصف الخريف ، ووازن بينه وبين الممدوح ، والشاعر معجب بالفصلين جميعاً ، فإذا كانت أمطار الربيع قد كست الأرض وشياً مذهباً ، وابتسمت فيه الأشجار بعد عبوس وتقطيب ، وخلعت فيه الرّياض حدادها الذى كانت ترتديه فى أيام الشتاء . وكأنما سقاها الغيث خمراً فأخذت أشجارها تمايل سكراً كلما هبّت الصّبا — فإنّ الخريف خلاصة العام وأجمل ما فيه، رقيق الهواء ، صافى الأفق ، عذب الأوقات ، ويستلذّ الشاعر بأوقات الخريف ، حتى ليخيّل إليه أنه لو استحال خمراً ما كانت حراماً .

واتخذ القاضى الشعر وسيلة يصف بها نفسه ، وما يمر بها من آمال وآلام ، ويبلغ قدراً كبيراً من الإجادة فى هذا اللون من الشعر ، وقد سبق أن أوردنا بعضه ، ومنه ما كان فى الشكوى .

وكان إعجاب بعض مؤرخيه عميقاً ببعض هذا الشعر الذى وصف به نفسه ، وبخاصة هذه القصيدة التى مطلعها : « يقولون لى : فيك انقباض . . » يعلّق عليها السبكى قائلا : « لله درّ هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه، وما أعلى على هام الجوزاء موضعه ! وما أنفعه ، لو سمعه من سمعه ! وهكذا فليكن، وإلاّ فلا، أدب كلّ فقيه ، ولمثل هذا الناظم يحسن النظم الذى لا نظير له ولا شبيه ، وعند هذا ينطق المنصف بعظيم الثناء على ذهنه الخالص لا بالتّنويه » (١) .

ويعرّف ابن خلكان به ، فيقول : إنه صاحب قصيدة : « يقولون لى : فيك انقباض . . » ويعلق عليها بأنها أبيات طويلة مشهورة(٢). وكان ابن خلكان

(١) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .
(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٤ :

فى القرن السابع الهجرى ، فقد ظلّ للقصيدة شهرتها منذ وفاة صاحبها فى القرن الرابع إلى أيام ابن خلكان .

أمّا الحكمة فربما وجدتها فى ثنايا القصيدة كهذا البيت :

وليس الفتى من كان ينصف حاضراً   أخاه، ولكن مَن إذا غاب أنصفا(١)

وحيناً نراه قد وضعها فى آخر القصيدة ، كما فعل زهير بن أبى سلمى فى معلقته . وحكمه ، وإن كانت قليلة ، تتّصل بموضوع القصيدة أوثق اتصال.

أما إخوانيّاته فتتدفّق فيها عواطفه، وربما استعار قلمه بعضُ إخوانه . فنظم القاضى شعراً على لسانه ، كهذا الصديق الذى أرسل إليه بعض إخوانه هدية فيها أفراخ وباقلاء وباذنجان ، فقال على لسانه يذكر ذلك :

أبى سيّد السادات إلا تظرّفا   وإلا وصالا دائماً ، وتعطّفا

ويمضى فى وصف الهديّة ، ويختم القصيدة بقوله :

فيالك من أكلٍ على ذكر من به   تطيب لنا الدّنيا، تعطّف أم جفا
ولم أر قبل اليوم تحفة مُتْحِفٍ   أسرّ وأبهى ، بل أجلّ وأشرفا
علمنا به كيف التّظرّف بعده   ومَن عاشر الحرّ الظريف تظرّفا

تحسّ وأنت تقرأ شعر القاضى الجرجانىّ بشدّة التلاؤم بين أبيات شعره ، ووثاقة اتصال البيت بجاره .

وشعره يتراوح بين الطول والقصر ، وأطول ما بقى له قصيدة تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً .

وهو شعر متوسط الجودة ، سهل الطريقة ، ولذلك جعله الثعالبى من أتباع البحترى(٢) ، وربما لمحت فيه بعض معانى المتنبى ، كقوله :

تقسّمت العلياء جسمك كله   فمن أين للأسقام فيه نصيب

فإنه يذكّرنا بقول أبى الطيب يخاطب الحُمّى :

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤ .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

أبنتَ الدّهر ، عندى كلّ بنت   فكيف وصلت أنت من الزحام

ومما يلحظ فى شعره الباقى أنّ معظمه من بحر الطويل أو البحور الطويلة ، مما يدل على أن منشئه هادئ فى انفعاله ، وإن كنت ترى له وبخاصة فى الغزل ، الأبيات القصيرة الدّالة على الانفعال السريع العنيف .

٧ — تأثّره وتأثيره

كان من الطبيعى لرجل كالقاضى الجرجانىّ يريد أن يكون من رجال الأدب ، وأن يؤلّف فى النقد الأدبى — أن يتصل بالكتب التى ألفت قبله فى هذا الموضوع ، وأن يستفيد من التجارب التى وصل إليها من سبقه من الباحثين ؛ وكان من الطبيعى كذلك أن يظهر أثر دراسته فى كتابه : الوساطة بين الشعراء .

فقد رأينا تأثّره بابن سلاّم الجمحىّ[١] فى إيمانه بأثر البيئة فى الشعر ، بل إنه يأتى بالمثل نفسه الذى أورده ابن سلام ، وهو عدى بن زيد ، فيرى صاحب الوساطة شعره ، وهو جاهلى ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة ؛ لملازمة عدى الحاضرة ، وإيطانه الرّيف ، وبعده عن جلافة البدو ، وجفاء الأعراب[٢] . وقبل القاضى ضربه ابن سلام مثلا لسهولة الشعر معللا ذلك بأنه كان يسكن مراكز الرّيف ، ويعيش فى الحيرة فى حيّز النعمان بن المنذر ؛ فثقل على لسانه عبارات نجد ، ولان لسانه ، وسهل منطقه[٣] .

وتأثر به أيضاً فى إيمانه بأن الشعر صناعة يعرفها أهل العلم كسائر الصناعات ، يقول ابن سلام : « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم »[٤] ، ويقول القاضى : « ولكل صناعة أهل يرجع

(١) توفى سنة ٢٣١ هـ .
(٢) الوساطة ص ١٧ .
(٣) طبقات فحول الشعراء ص ١١٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٦ .

إليهم فى خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها »[١] .

ورأى كما رأى ابن سلام من قبل أن ذوق العلماء بالشعر هو الفيصل فى الحكم ، وإن كان غير مستطيع أن يبين السبب الذى دعا إلى هذا الحكم ، يقول ابن سلام : « يقال للرّجل والمرأة فى القراءة والغناء : إنه لندىّ الصوت[٢] والحلق ، طلّ الصوت[٣] ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر بهذه الصّفة ، وبينهما بون بعيد . يعرف ذلك العلماء عند المعاينة ، والاستماع له ، بلا صفة ينتهى إليها ، ولا علم يوقف عليه ، وإنّ كثرة المدارسة لتُعدى على العلم به ، فكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به »[٤] .

وقد سبق أن بيّنا رأى القاضى فى إدراك الجمال ، وأن مآله إلى باطن تحصّله الضمائر .

وإذا كان القاضى الجرجانى يسوّى بين القديم والمحدث ، ولا ينظر إلى القديم بعين الإكبار لتقدّمه فى الزمن ، ولا إلى المحدث بعين الزّراية لتأخره فى الوجود ، بل يفاضل بينهم بمقدار ما منحوه من طبع ، وذكاء ، ورواية ، ودربة ، لا يفصل فى هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلىّ والمخضرم[٥] ، والأعرابىّ والمولّد[٦] . ولا يرى من العدل استنقاص المتأخرين واللهج بعيبهم[٧] — فمن قبله أعلن ابن قتيبة[٨] هذا الرّأى نفسه إذ قال : « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كلّ شاعر مختاراً له سبيل من قلّد ، أو استحسن باستحسان غيره ،

(١) الوساطة ص ٩٧ .
(٢) ندى الصوت : بعيده ممدوده .
(٣) طل الصوت : حسنه ، عذبه ، ناعمه ، بهيج النغمة .
(٤) طبقات فحول الشعراء ص ٧ . وتعدى : تعين .
(٥) المخضرم : الشاعر الذى أدرك الجاهلية والإسلام .
(٦) الوساطة ص ١٤ — ١٥ .
(٧) الوساطة ص ٤٩ .
(٨) توفى سنة ٢٧٦ هـ .

ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة ؛ لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار ؛ لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلاً حقه ، ووفرت عليه حظه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف ؛ لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيَّره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده ، وجعل كلّ قديم منهم حديثاً فى عصره . . . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنّه ، كما أنّ الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ، ولا تقدمه »(١) .

وقد وفّى ابن قتيبة الموضوع حقه أكثر مما وفاه القاضى الجرجانى .

وقد قرأ القاضى كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى(٢) ؛ وهناك أشياء قد اتفق فيها الناقدان :

فمن ذلك تمجيد الناقدين للشعر المطبوع ، وإن اختلفت نظرتهما إلى المطبوع من الشعر ، فالآمدى يراه : «المستوى قليل السقط الذى لا يبين جيده من سائره بينونة شديدة »(٣) ، بمعنى ألا يرتفع ارتفاعاً شديداً فى بعض أجزاء القصيدة ، وينحدر انحداراً معيباً فى بعضها الآخر . وقد سبق أن بيّنا رأى القاضى فى الشعر المطبوع(٤) .

ونجد الناقدين يعترفان بتفاوت شعر أبى تمام(٥) ، وبأن فى شعره استعارات قبيحة(٦) .

(١) الشعر والشعراء ص ٢ .
(٢) توفى سنة ٣٧٠ هـ .
(٣) الموازنة ص ٢٢ .
(٤) راجع ص ٥٣ .
(٥) الموازنة ص ٢٢ ، والوساطة ص ٢١ .
(٦) الموازنة ص ١١٢ ، والوساطة ص ٣٩ .

ووجدنا الآمدى يتحدث عن السرقة ، فلا يجد سرقة فيما يشترك الناس فيه ، وتجرى طباع الشعراء عليه ، وإنما السرق يكون فى البديع الذى ليس للناس فيه اشتراك(١) . وهذا هو الرأى الذى وضحه القاضى الجرجانى(٢) .

ويتسامح الآمدى فى السرقة ، ولا يعدّها من كبير المساوئ إذ يقول : «إن من أدركت من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعانى من كبير مساوئ الشعراء ، وخاصة المتأخرين ؛ إذ كان هذا باباً ما تعرّى منه متقدّم ولا متأخر(٣) . وذلك هو رأى القاضى الجرجانى(٤) ، كما سبق أن ذكرنا .

ويتفقان أيضاً فى أن الذى يحكم على الشعر إنما هم أهل الخبرة والدّربة ، وأنهم قد يدركون ألوان الجمال بأذواقهم ، ولا يستطيعون الإفصاح عن أسباب حكمهم ، يقول الآمدى : «ألا ترى أنه قد يكون فرسان سليمين من كل عيب ، موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدّربة الطويلة . . . وإذا قيل له : من أين فضلت هذا الفرس على صاحبه لم يقدر على عبارة توضح الفرق بينهما ، وإنما يعرفه بطبعه ، وكثرة دربته ، وطول ملابسته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران ؛ فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحداً ، أو أيهما أجود فى معناه ، إن كان معناهما مختلفاً . . . وحكى إسحق الموصلى قال : قال لى المعتصم : أخبرنى عن معرفة النغم ، وبيّنها لى ؛ فقلت : إنّ من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ، ولا تؤديها الصّفة . . . وإنه ليس فى وسع كلّ أحد أن يجعلك أيها السائل فى العلم بصناعته كنفسه . . . ولا أن يأتيك بعلة قاطعة ، ولا حجة باهرة »(٥) .

(١) الموازنة ص ٢٣ .
(٢) الوساطة ص ١٨٠ .
(٣) الموازنة ص ١٣١ .
(٤) الوساطة ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .
(٥) الموازنة ص ١٧٧ – ١٧٨ .

وفكرته كفكرة القاضى الجرجانى ، ولكن القاضى ضرب المثل بصورتين مكان الفرسين[١] .

* * *

وكان أثر القاضى كبيراً فيمن جاء بعده ، سواء فى الدّراسات النقدية ، أو فى الدّراسات التى دارت حول المتنبى :

فرأينا أثره واضحاً فى عبد القاهر الجرجانىّ عندما تحدث هذا عن السرقة الأدبية ، فرأى أنّ المعنى إن كان مما اشترك الناس فى معرفته ، وكان مستقراً فى العقول والعادات لا يكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ والسرقة[٢] . وذلك ما سبق به القاضى الجرجانى[٣] .

وبرغم أن القاضى الجرجانى كان يدين بتفضيل أبى تمام وتقديمه ، ويراه قبلة أصحاب المعانى ، وقدوة أهل البديع[٤] — يراه متكلفاً ، متوعّر اللفظ ، متغلغلا فى التصعب ، طالباً للبديع من كلّ وجه ، يجتلب المعانى الغامضة[٥] .

وقد تأثر بهذا الرّأى عبد القاهر الجرجانى ، فكان يجد فى شعره أمثلة للتعقيد[٦] ، وللاستعارة والجناس الرديئين[٧] ، ويقع فى ضرب من التهوس[٨] ، ويجده فاسد الذوق[٩] ، ويفضّل الرجلان البحترى على أبى تمام ، ولذلك قدّم عبد القاهر مختاراته للبحترى على مختاراته لأبى تمام[١٠] .

ومع ذلك يقف الناقدان معجبين بالشعر الرائع لأبى تمام[١١] .

---

(١) الوساطة ص ٤٢٦ — ٤٢٧ .
(٢) أسرار البلاغة ص ٢٩٤ .
(٣) راجع ص ٦٠ .
(٤) الوساطة ص ١٨ .
(٥) المرجع السابق نفسه . وراجع آراءه فى أبى تمام فى الوساطة ص ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ .
(٦) دلائل الإعجاز ص ٦٦ ، وأسرار البلاغة ص ١٢١ .
(٧) دلائل الإعجاز ص ٤٠٢ ، وأسرار البلاغة ص ٤ .
(٨) أسرار البلاغة ص ٥٩ . (٩) أسرار البلاغة ص ٢٢٠ .
(١٠) عبد القاهر الجرجانى ص ٣٥ .
(١١) راجع الوساطة ص ٢٠ ، ٦٣ ، ودلائل الإعجاز ص ٨٢ ، ١٧٤ ، ٢٤١ ، وأسرار البلاغة ص ١٠٠ ، ٣١١ .

وارتضى عبد القاهر الجرجانىّ ما عرّف به القاضى الاستعارة ، ومتى تكون قويّة رائعة ، فنقل فى كتابه : دلائل الإعجاز[١] تعريف القاضى للاستعارة ، وأنها ما اكتفى فيه بالاسم المستعار عن الأصلى ، ونقلت العبارة ، فجعلت فى مكان غيرها[٢] . وإن فسّر عبد القاهر النقل تفسيراً يبين عن نفس حسّاسة .

ونقل فى كتابه : أسرار البلاغة[٣] عن القاضى أساس الاستعارة القوية ، إذ جعل ملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه[٤] .

كما قبل عبد القاهر أيضاً رأى القاضى فى الفرق بين التشبيه والاستعارة ، فإذا ذكر المشبه والمشبه به كان ذلك تشبيهاً ، أما إذا اقتصر على أحدهما فذلك هو الاستعارة[٥] .

ورأى عبد القاهر نقد القاضى الجرجانى لبيت ابن المعتز :

بياض فى جوانبه احمرار   كما احمرّت من الخجل الخدود

حين قال القاضى : « ولو اتّفق له أن يقول : حمرة فى جوانبها بياض ، لكان قد طبّق المفصل، وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان ، فجعل الاحمرار فى جوانب البياض »[٦] — فنقله عبد القاهر فى كتابه أسرار البلاغة[٧] .

إلا أنّ عبد القاهر كان أدق من أستاذه ، لأنّ القاضى رأى أن ابن المعتزّ « راغ عن موقع التشبيه »[٨] ؛ وأما عبد القاهر فيرى أنّ الشاعر « لعله وجد الأمر كذلك فى الوردة ؛ فشبه على طريق العكس ؛ فقال هذا البياض حوله الحمرة ، كالحمرة حولها البياض هناك ... والقصد إلى جنس من الورد مخصوص ؛ وهو ما فيه بياض يحدق به حمرة »[٩] .

---

(١) ص ٣٣٣ . (٢) الوساطة ص ٤٠ . (٣) ص ٣٤٦ . (٤) الوساطة ص ٤٠ .
(٥) أسرار البلاغة ص ٢٧٩ ، والوساطة ص ٤٠ . (٦) الوساطة ص ١٨٢ .
(٧) ص ١٧٢ . (٨) الوساطة ص ١٨٣ . (٩) أسرار البلاغة ص ١٧٢ — ١٧٣ .

فأنت ترى عبد القاهر يريد أن ينظر إلى المشبه من حيث هو فى الواقع ، ويصحح التشبيه على هذا الوضع ، وكأن القاضى يريد أن يطابق بين المشبه والمشبه به ، وإن لم يكونا متطابقين فى واقع الطبيعة .

وأطال القاضى الجرجانى فى الحديث عن تعقيد الشعر[١] ، وربما يكون قد أدرك أنّ المعنى الذى يفهم من البيت لا يفى بالتعب الذى يبذل فى سبيل الوصول إليه[٢] .

كما أطال عبد القاهر فى الحديث عن التعقيد أيضاً ، ولكنه وازن بين الكلام البليغ المتوقّف على دقّة الفكر ، وهو ممدوح لدى النقاد ، وهذا المعقد المذموم. وانتهى إلى أنّ المعقد من الشعر والكلام لم يذم ؛ لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة . بل لأنّ صاحبه يجعل فكرك يتعثّر فى مضمونه ، ويجعل طريقك إلى المعنى شائكاً ، ومذهبك نحوه وعراً ، بل ربما قسم فكرك ، وشعّب ظنك . حتى لا تدرى من أين تتوصل ؟ وكيف تطلب ؟[٢]

وإذا كان القاضى قد تحدّث عن تفنن الشعراء فى السرقة فإنّ ذلك فتح الباب أمام عبد القاهر للموازنة بين الشعراء حين يقولون فى معنى واحد[٣] ، وفى هذا الفصل ينقل رأى القاضى من أنّ قول أبى نواس :

خليت والحسنَ تأخذه ... تنتقى منه ، وتنتخب
فاكتست منه طرائفه ... واستزادت فضل ما تهب

وبيت عبد الله بن مصعب :

كأنك جئت محتكماً عليهم ... تخيّر فى الأبوّة ما تشاء

أحدهما هو الآخر فى المعنى ، وإن كان أحدهما يتخير الحسن ، والآخر الأبوّة . وأنهما من قول بشار :

خلقت على ما فىّ غير مخيّر ... هواى ، ولو خيّرت كنت المهذبا

(١) الوساطة ص ٩٦ .
(٢) أسرار البلاغة ص ١٢٥ .
(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٧٤ .

ثمّ تناوله أبو تمام ، فأخفاه ، فقال :

ولو صوّرت نفسك لم تزدها ... على ما فيك من كرم الطباع[١]

وكان لرأيه فى إنتاج الشعر أثره فى النقاد من بعده .

أما ابن رشيق[٢] فقد رأى ما رآه القاضى الجرجانىّ من أنّ الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرّواية والذّكاء ، ثمّ تكون الدّربة مادّة له . وقوّة لكلّ واحد من أسبابه[٣] ، وينقل ذلك عنه فى كتابه العمدة[٤].

كما يقرر ابن الأثير[٥] أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة . . . وملاك هذا كله الطبع ، فإنه إذا لم يكن ثمّ طبع فإنه لا تغنى تلك الآلات شيئاً ، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة فى الزّناد ، والحديدة التى يقدح بها ؛ ألا ترى أنه إذا لم يكن فى الزّناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئاً »[٦] .

ويشيد ابن خلدون[٧] بأثر الدّربة فى الإنتاج الأدبىّ إذ يقول : « ثمّ بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال ، يقبل على النظم ، وبالإكثار منه تستحكم ملكته ، وترسخ »[٨] .

* * *

أما أثره فى الدّراسات التى دارت حول المتنبى فتبدو فى أولئك الذين خصوا المتنبى بالدّراسة ، فمنهم من أخذ عنه ، ومنهم من رأى فى الشاعر رأيه الذى بنى الوساطة عليه .

فمن هؤلاء الثعالبى[٩] صاحب يتيمة الدهر ، فقد عقد فى هذا الكتاب فصلا درس فيه أبا الطيب وديوانه[١٠] .

(١) الوساطة ص ١٩٩ ، ودلائل الإعجاز ص ٢٩٠ . (٢) توفى سنة ٤٦٣ هـ .
(٣) الوساطة ص ١٤ . (٤) جـ ١ ص ٧٨ . (٥) توفى سنة ٦٢٧ هـ .
(٦) المثل السائر ص ٣ . (٧) توفى سنة ٨٠٨ هـ .
(٨) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٦ . (٩) أبو منصور عبد الملك بن محمد توفى سنة ٤٢٩ هـ .
(١٠) يتيمة الدهر جـ ١ من ص ٩٠ — ١٩٠ .

إن هذه الدراسة صدى للمذهب المعتدل الذى كان القاضى الجرجانىّ من زعماء ممثليه ؛ فإن الثعالبى يوازن بين مزايا الديوان ونقائصه ، كما فعل القاضى من قبل .

يقول الثعالبى : « وأنا مورد فى هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه فى الشعر وطرائقه . . . ، والتنبيه إلى عيونه وعيوبه »[١] ؛ وهو بذلك ينهج نهج القاضى الجرجانى الذى يرى للمتنبى محاسنه وعيوبه .

وينقل عن صاحب الوساطة رأيه فى أنّ أبا الطيب عندما قال :

أقل ، أنل ، أقطع ، احمل ، علّ ، سلّ ، أعد
زد ، هشّ ، بشّ ، تفضّل ، أدن ، سَرّ ، صِلِ

قد نسج على منوال ديك الجنّ ، عندما قال :

احْلُ ، وامرُر ، وضرّ ، وانفع ، ولن ، واخشن . ورشْ ، وبرّ ، وانتدب للمعالى[٢]

فلما جاء إلى سرقات المتنبى رأى أن يورد منها ما لم يورده القاضى فى كتابه ، وقد رأى الثعالبى أن القاضى فى هذا الباب « شفى وكفى ، وبالغ فأوفى »[٣] .

أما الأبواب الأخرى التى عقدها لبيان معايب شعر المتنبى فإنه أحياناً ينقل عن القاضى رأيه فى هذا المعيب[٤] ، ويذكر اسمه صراحة ، وأحياناً ينقل ، ولا يذكر الاسم .

وتأثر به من دارسى المتنبى كذلك أبو سعيد محمد بن أحمد العميدى[٥] ،

(١) يتيمة الدهر ١ : ٩١ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٧ .
(٣) المرجع السابق ص ١١٠ .
(٤) المرجع السابق ص ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٦ .
(٥) توفى سنة ٤٣٣ هـ .

فبرغم أنّ اتجاهه يخالف اتجاه القاضى تمام المخالفة ؛ لأنه هاجم المتنبى هجوماً عنيفاً ، ولم يرد إلا بيان ما فى شعر أبى الطيب من السرق ، إذ يقول : « ولقد تأملت أشعاره كلها ؛ فوجدت الأبيات التى يفتخر بها أصحابه ، وتعتبر بها آدابه ، من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم مسلوخة »[١] ، برغم ذلك نجد تأثره به واضحاً فى أنه لم يجعل الدّين من مقاييس نقده للمتنبى ، فهو يعلن إنكاره لذلك فى صراحة ، ويقول : « وكيف يسوغ لى أن أثلبه لإلحاده . . . ، وأنا أتحقق أن أكثر من يستشهد بأشعارهم المشركون والكفار والمنافقون والفجار »[٢] ؛ وقد سبق أن أعلن القاضى أنّ الدّين بمعزل عن الشعر[٣] .

ومما هو جدير بالذكر هنا أنّ الثعالبى ، وإن كان يرى « أنّ الدّيانة ليست عياراً على الشعراء ، ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر »[٤] يرى أنّ « للإسلام حقه من الإجلال الذى لا يسوغ الإخلال به قولا وفعلا ، ونظماً ونثراً »[٥] .

ولكننى رأيت العميدى ينقل خطأ عن القاضى الجرجانى : « أنّ البحترىّ أحرق خمسمائة ديوان للشعراء فى أيامه حسداً لهم ؛ لئلا تشتهر أشعارهم ، ولا تنتشر فى الناس محاسنهم وأخبارهم »[٦] ؛ فإنّ القاضى لم يرو الخبر على هذا الوجه ، بل قال : « إن البحترى أسقط خمسمائة شاعر فى عصره »[٧] ؛ ولست أدرى كيف وقع العميدى فى هذا الخطأ ؛ فهناك فرق شاسع بين الرّوايتين .

(١) الإبانة عن سرقات المتنبى ص ٢٢ .
(٢) الإبانة عن سرقات المتنبى ص ٢٤ .
(٣) الوساطة ص ٦٢ .
(٤) يتيمة الدهر ١ : ١٤٢ .
(٥) المرجع السابق نفسه .
(٦) الإبانة عن سرقات المتنبى ص ٢٣ .
(٧) الوساطة ص ١٥٧ .

ويخالف العميدى القاضى الجرجانى فى نظرته إلى ابن الرومىّ ، فبينا لا يراه القاضى الجرجانى شيئاً إذا قيس بالمتنبى (١) ، يفضله العميدىّ على أبى الطيب ، ويقول : « ولا أقيسه فى امتداد النفس ، وعلم اللغة ، والاقتدار على ضروب الكلام ، وتصوّر المعانى العجيبة ، والتشبيهات الغريبة ، والحكم البارعة ، والآداب الواسعة ، بابن الرومى »(٢) .

أما يوسف البديعى(٣) فى كتابه : « الصبح المنبى ، عن حيثية المتنبى » فيختار طريقة صاحب الوساطة منهجاً له ، فيذكر معايب شعره ومقابحه(٤) ، ثم يورد « نبذة من محاسنه وروائعه ، وغرائبه ، وقلائده وفرائده التى زاد فيها على من تقدّم ، وسبق بها جميع من تأخر »(٥) .

وقد انتفع البديعىّ بكلّ ما قرأه من كتب السابقين عن المتنبى ، كيتيمة الدهر للثعالبى ، والمثل السائر لابن الأثير ، والكشف عن سرقات المتنبى للعميدى ، والكشف عن مساوئ المتنبى لابن عباد ، والمنصف لابن وكيع ، وإلى جانب ذلك انتفع بجهود صاحب الوساطة فى دراسة للمتنبى .

* * *

٨ ـ منزلته

للقاضى الجرجانى مكانة عالية فى النقد الأدبىّ ، وإنه يستمدّ هذه المكانة من أمور كثيرة ، منها :

دعوته الحارّة إلى العدالة فى النقد ، وعدم اتباع الهوى ، وهو بذلك يدعو إلى نقد مؤسس على الشعور الصادق ، لا على التقليد والتحامل .

(١) الوساطة ص ٨٢ .
(٢) الإبانة عن سرقات المتنبى ص ٢٤ .
(٣) توفى سنة ١٠٧٣ هـ .
(٤) الصبح المنبى ص ١٨٠ .
(٥) الصبح المنبى ص ٢٣٧ .

ومن العدالة فى النقد النظر إلى موضوع النقد من زواياه المختلفة ، حتى ينال ما يستحقه من الذمّ أو الثناء ؛ إذ من الظلم الحكم على الشىء بجانب منه ، دون إشراك باقى الجوانب ، وبهذه النظرة الشاملة تكون النتيجة أقرب ما تكون إلى الصّواب .

ومن العدالة فى النقد أيضاً الاحتراس فى إصدار الأحكام ؛ حتى لا تلقى جزافاً ، فلا بدّ من الاستقراء الشامل ، ليكون الاستنتاج صحيحاً ، فإذا لم يتأتّ هذا الاستقراء فحذار من إلقاء الأحكام العامة ؛ لأنها حينئذ تكون خاطئة .

والقاضى الجرجانى يستمد هذه المبادئ من عمله قاضياً ينبغى له أن يتثبت من أسباب الحكم قبل إصداره .

وعندما أشاد القاضى بالطبع المهذّب الذى صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، دعا النقاد إلى أن يأخذوا بنصيب كبير من الثقافة الأدبية ، متى كان الطبع لديهم ، حتى تتهيأ لهم الأداة الصّالحة للحكم الصّواب . والواقع أنه من غير هذا الطبع المهذّب لا يمكن الحكم على النصوص الأدبية حكماً له قيمة نقدية .

ووضّح القاضى الأسس التى بها يتفاوت الشعراء فى الجودة ، ويوضع بعضهم فى طبقة أعلى من بعض ، يوم ذكر أنّ الشعر علم يشترك فيه الطبع ، والذكاء ، والرّواية ، والدّربة ؛ ولا يكاد الزّمن يضمّ إلى هذه الأسس جديداً إلا أن يضع مكان الرّواية الثقافة التى يُطالب بها الأدباء فى العصر الحديث ، ورواية النصوص الأدبية ودراستها بعض من هذه الثقافة .

وكان القاضى صريحاً عندما أعلن أنّ شعراء الجاهلية يخطئون ، وأنّ النحاة يركبون الصّعب لتأويل هذا الخطأ ، من غير أن يكون ثمة باعث سوى شدّة إعظام المتقدم . وفى تلك النظرة المتحرّرة ، ما يجعل الناقد يصدر حكمه

كما يهدى إليه عقله وذوقه المصقول ، لا يحول بينه وبين أن يقول ما يعتقده إيمان بقداسة الأقدمين .

كما أنه من النقاد الذين رأوا جمال الشعر فى أن يكون مطبوعاً لا تكلف فيه ، ولا اجتلاب لمحسّن أو زينة ، وهو رأى تؤمن به الأذواق الصافية ، ويأخذ به عصرنا الحديث .

ولا يمنع القاضى أن تصاغ الآراء الفلسفية شعراً ، بل يرى المتنبى يتأتّى له المعنى البكر إذا خرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة ، كما فى قوله :

إلف هذا الهواء أوقع فى الأنـ ـفس أنّ الحمام مرُّ المذاق

والأسى قبل فرقة الرّوح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق[1]

وكأنه بذلك يسمح لجميع التجارب الإنسانية ، أن تصاغ فى لغة الشعر .

وإذا كان قد عاب على أبى تمام أنه خاطب غلاماً غرًّا بلغة فلسفية[2] ، فموضع العيب إنما هو فى استخدام الأفكار الفلسفية فى غير مكانها .

وقرّر القاضى الجرجانى فى صراحة الصّلة بين الأدب وخلقة الأديب فضلا عن الصّلة بين أدبه وطبعه وذكائه .

وهو ناقد موضعىّ ، يحدّد موضوع النزاع ، ليناقشه ويخرج منه بنتيجة مقبولة .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله الجهود التى بذلها فى بيان ما للمتنبى من حسنات وسيئات ، وما ضربه من الأمثلة لجيد شعره ورديئه ، وما قام به من دراسات لشعراء ساقه إليها دراسته للمتنبى أدركنا قيمة الرجل بين نقاد العرب .

وإذا أضفنا أيضاً عمق نظرته ، ومقدرته على التحليل ، والتعليل وتبيين ما فى الشعر من مظاهر الانحراف ، وتوضيح ذلك وتصويره ، فهمنا قيمته فى النقد الأدبى .

---

(١) الوساطة ص ١٧٧ .

(٢) راجع رأيه فى شعر أبى تمام فى فصل « منتخبات من آثاره » .

ولكننا نأخذ عليه أنه لم يحدّد فى وضوح مكان أبى الطيب بين الشعراء ، وعندما « قسم شعره فجعله فى الصدر الأوّل تابعاً لأبى تمام ، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم »[1] وعندما جعلك « لا تدعى لأبى الطيب طريقة بشار وأبى نواس . . . ولو ادعيته فإنما كنت تخادع نفسك ، أو تباهت عقلك ، وإنما أنت أحد رجلين : إما أن تدّعى له الصّنعة المحضة ، فتلحقه بأبى تمام ، وتجعله من حزبه ، أو تدّعى له فيه شركاً ، وفى الطبع حظًّا ، فإن ملت به نحو الصنعة فضل ميل صيّرته فى جنبة مسلم ، وإن وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلا نحو البحترى »[2] . — عندما قال ذلك لم يزدنا علماً بمكان أبى الطيب ، ولكنه شكّكنا فى موضعه الحقيقى ، أين يكون .

---

(١) الوساطة ص ٤٩ .

(٢) الوساطة ص ٤٨ .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار القاضى الجرجانى

(١) الناقد

العدالة فى النقد

« يجب أن يتبع الناقد الحق ، وألا يميل مع الهوى ؛ ليثق الناس به فيما يقول » .

« وكما ليس من شرط صِلَة رَحِمِك أن تحيف لها عن الحقّ ، أو تميل فى نصرها عن القَصْد ، فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تَعْدِلَ لأجله عن الإنصاف ، أو تخرجَ فى بابه إلى الإسراف ؛ بل تتصرّف على حكم العدل كيف صَرَفَك ، وتقف على رسْمِه كيف وقَفَك ، فتنتصفُ تارة ، وتعتذرُ أخرى ؛ وتجعل الإقرار بالحقّ عليك شاهداً لك إذا أنكرت ، وتقيم الاستسلام للحجّة — إذا قامت — محتجًّا عنك إذا خالفت ؛ فإنّه لا حال أشدّ استعطافًا للقلوب المنحرفة ، وأكثر استمالة للنفوس المشمئزة ، من توقّفك عند الشّبْهة إذا عرضت ، واسترسالك للحجة إذا قهرت ، والحكم على نفسك إذا تحقّقت الدّعوى عليها ، وتنبيه خصمك على مكامن حيلك إذا ذهب عنها ؛ ومتى عُرِفْتَ بذلك صار قولك برهانًا مسلّمًا ، ورأيك دليلاً قاطعًا ، واتهم خصمك ما علمه وتيقنه ، وشكّ فيما حفظه وأتقنه ، وارتاب بشهوده وإن عدّ لتهم المحبة ، وجَبُن عن إظهار حججه وإن لم تكن فيها غميزة ، وتحامتك الخواطر فلم تقدم عليك إلاّ بعد الثقة ، وهابتك الألسُنُ فلم تعرض لك إلاّ فى الفرط والندرة »[١] .

(١) الوساطة ص ٢ . والفرط : الحين . والغميزة : المطعن والضعف . واسترسل : استأنس . وانتصف منه : أخذ حقه منه ، أو انتقم منه .

الشعر

بين القدماء والمحدثين

« يتفاضل الشعراء قديماً وحديثاً بمقدار حظوظهم من الطبع والذكاء والرواية والدربة ، وحاجة المحدث إلى الرواية أشد ، ليحيط بألفاظ العرب » .

« إنّ الشّعر علم[١] من علوم العرب ، يشترك فيه الطّبع ، والرّواية ، والذّكاء ، ثمّ تكون الدّربة مادّة له ، وقوّة لكلّ واحدٍ من أسبابه ؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرِّز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ، ولست أفصل فى هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلىّ والمخضرم[٢] ، والأعرابىّ والمولّد ؛ إلاّ أننى أرى حاجة المحدث إلى الرّواية أمسّ ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفْقَر ؛ فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلّة فيها أن المطبوع الذّكىّ لا يمكنه تناولُ ألفاظ العرب إلاّ رواية ، ولا طريق للرّواية إلاّ السمع ؛ وملاك الرّواية الحفظ ؛ وقد كانت العرب تروى وتحفظ ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض ؛ كما قيل : إنّ زهيراً كان راوية أوس ، وإنّ الحُطَيْئَة راوية زهير ، وإنّ أبا ذؤيب راوية ساعدة ابن جوية ؛ فبلغ هؤلاء فى الشّعر حيث تراهم . وكان عبيد راوية الأعشى ، ولم تُسْمَعْ له كلمة تامة ، كما لم يسمع لحسين راوية جرير ، ومحمد بن سهل راوية الكميت ، والسائب راوية كثيّر ؛ غير أنها كانت بالطبع أشدّ ثقة ، وإليه أكثر استئناسًا .

وأنت تعلم أنّ العرب مشتركة فى اللغة واللسان ، وأنّها سواء فى المنطق والعبارة ؛ وإنما تفضل القبيلة أختها بشىء من الفصاحة . ثمّ قد تجد الرّجل

(١) لم يكن المؤلفون يومئذ يفرقون بين العلم والفن .

(٢) المخضرم : من أدرك الجاهلية والإسلام .

منها شاعراً مفلقاً ، وابن عمه وجار جنابه ولصيق طنبه بكيئاً مفحماً[1] ؛ وتجد فيها الشاعرَ أشعر من الشاعر ، والخطيب أبلغ من الخطيب ، فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذّكاء ، وحدّة القريحة والفطنة .

وهذه أمور عامة فى جنس البشر ، لا تخصيص لها بالأعصار ، ولا يتصف بها دهر دون دهر[2] .

تطوّر الشعر وأثر التكلّف

« اتجه الشعر بعد الإسلام إلى الرقة ، وصار هؤلاء الذين يرومون الاقتداء بالأقدمين متكلفين ، قلت الحلاوة فى شعرهم ، وذهب رونق كلامهم » .

« لما ضرب الإسلام بجِرانه[3] ، واتّسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادى إلى القرى ، وفشا التأدّب والتظرّف ، اختار الناس من الكلام ألْيَنَه وأسهله ، وعمدوا إلى كلّ شيء ذى أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعاً ، وألطفها من القلب موقعاً ، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها ؛ كما رأيتهم يختصرون [ألفاظ][4] الطويل ؛ فإنهم وجدوا للعرب فيه نحواً من ستين لفظة ، أكثرها بَشِع شَنِع ، كالقشنّط ، والعنطنط ، والعشنّق ، والجسرب ، والشّوقب ، والسّلهب ، والشّوذب ، والطّاط ، والطّوط ، والقاق ، والقوق ؛ فنبذوا جميع ذلك وتركوه ، واكتفوا بالطويل لخفّته على اللسان ، وقلّة نبوّ السمع عنه ، وتجاوزوا الحدّ فى طلب التّسهيل ؛ حتى تسمّحوا ببعض اللحن ، وحتى خالطتهم الرّكاكة والعجمة ؛ وأعانهم

(١) الطنب : حبل طويل تشد به الخيمة . والبكيء : قليل الكلام . والمفحم : من لا يستطيع أن يقول الشعر .

(٢) الوساطة ص ١٤ — ١٥ .

(٣) أى استوطن الإسلام البلاد . وأصل الجران : مقدم عنق البعير .

(٤) زيادة من الناشرين لكتاب الوساطة .

على ذلك لين الحضارة ، وسهولة طباع الأخلاق ، فانتقلت العادة ، وتغيّر الرّسم ، وانتسخت هذه السنّة ، واحتذوا بشعرهم هذا المثال ، وترقّقوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللّين ، فيظنّ ضعفاً ؛ فإذا فرد عاد ذلك اللّين صفاء ورونقاً ، وصارماً تخيلته ضعفاً ، رشاقة ولطفاً : فإن رام أحدهم الإغراب ، والاقتداء بمن مضى من القدماء ، لم يتمكّن من بعض ما يرومه إلاّ بأشدّ تكلف ، وأتمّ تصنّع ، ومع التكلف المقت ، وللنفس عن التصنّع نفرة ، وفى مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرّونق ، وإخلاق الدّيباجة »[1] .

التّحامل فى نقد المحدثين

« يجد القاضى باب العذر ممهداً أمام المحدثين من الشعراء ، ويذكر بعض ما يواجهون به من النقد المسرف » .

« ولو أنصفَ أصحابُنا هؤلاء لوجد يسيرهم أحقّ بالاستكثار ، وصغيرهم أولى بالإكبار ، لأن أحدهم يقف محصوراً بين لفظ قد ضيق مجاله ، وحذف أكثره ، وقلّ عدده ، وحُظِر معظمه ؛ ومعان قد أخذ عفوها ، وسبق إلى جيدها ، فأفكاره تنبث فى كلّ وجه ، وخواطره تستفتح كل باب ؛ فإن وافق بعض ما قيل ، أو اجتاز منه بأبعد طرف ، قيل : اسرق بيت فلان ، وأغار على قول فلان ، ولعلّ ذلك البيت لم يقرع قطّ سمعه ، ولا مرّ بخلده ، كأنّ التوارد عندهم ممتنع ، واتفاق الهواجس غير ممكن ؛ وإن افترع معنى بِكْراً ، أو افتتح طريقاً مبهماً ، لم يرض منه إلاّ بأعذب لفظ وأقربه إلى القلب وألذّه فى السمع ، فإن دعاه حبّ الإغراب وشهوة التنوّق[2] إلى تزيين شعره ،

(١) الوساطة ص ١٧ .

(٢) تنوق فى أموره : تجود وبالغ فيها .

وتحسين كلامه، فوشّحه بشىء من البديع ، وحلاّه ببعض الاستعارة قيل : هذا ظاهر التكلّف ، بيّن التعسّف ، ناشف الماء ، قليل الرّونق ؛ وإن قال ما سمحت به النفس ، ورضى به الهاجس ، قيل : لفظ فارغ ، وكلام غسيل ؛ فإحسانه يُتأوّل ، وعيوبه تتمحّل ، وزلّته تتضاعف ، وعذره يكذّب »(١)

الذّوق والنقد

« يؤمن القاضى الجرجانى أن النقد الأدبى يعتمد على الذوق المرهف الذى لا يستطيع أحياناً أن يعلل لأحكامه » .

« أعدل إلى ذكر ما رأيتك تنكر من معانيه وألفاظه ، وتعيب من مذاهبه وأغراضه ، وتحيل فى ذلك الإنكار على حجة أو شُبْهة، وتعتمد فيما تعيّنه على بيّنة أو تهمة، إذ كان ما قدّمتُ حكايته عنك، وما عددته من مطاعنك، وأثبتّه من الأبيات التى استسقطتها، وملت على هذا الرّجل لأجلها من باب ما يمتحن بالطبع لا بالفكر ، ومن القسم الذى لاحظّ فيه للمحاجة ، ولا طريق له ، إلى المحاكمة ، وإنما أقصى ما عند عائبه ، وأكثر ما يمكن معارضه أن يقول: فيه جهامة سلبته القبول ، وكزازة نفّرت عنه النفوس ، وهو خال من بهاء الرّونق ، وحلاوة المنظر ، وعُذوبة المسْمَع ، ودماثة النثر ، ورشاقة المعرِض ، قد حمل التعسّف على ديباجته ، واحتكم التعمّل فى طلاوته ، وخالف التكلّف بين أطرافه ، وظهرت فجاجة التصنّع فى أعطافه، واستهلك التعقيد معناه ، وقيّد التعويص مراده .

وهذا أمر تُستَخبَر به النّفوس المهذبة ، وتستشهد عليه الأذهان المثقّفة، وإنما الكلام أصوات محلها من الأسماع محلّ النواظر من الأبصار . وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفى أوصاف الكمال ، وتذهب فى

(١) الوساطة ص ٥١ .

الأنفس كلّ مذهب ، وتقف من التمام بكلّ طريق ؛ ثمّ تجد أخرى دونها فى انتظام المحاسن ، والتئام الخلقة ، وتناصف الأجزاء ، وتقابل الأقسام ؛ وهى أحظى بالحلاوة ، وأدنى إلى القبول ، وأعلق بالنفس ، وأسرع ممازجة للقلب ، ثمّ لا تعلم — وإن قايست واعتبرت ، ونظرت وفكّرت — لهذه المزيّة سبباً ، ولما خُصّت به مُقْتَضِياً .

ولو قيل لك : كيف صارت هذه الصّورة ، وهى مقصورة عن الأولى فى الإحكام والصّنْعة ، وفى الترتيب والصّيغة ، وفيما يجمع أوصاف الكمال ، وينتظم أسباب الاختيار أحْلَى وأرْشَق ، وأحْظَى وأوْقَع ؟ لأقمت السائل مقام المتعنّت المتجانف، ورددته ردّ المستبهم الجاهل ! ولكان أقصى ما فى وسعك ، وغاية ما عندك أن تقول : موقعه فى القلب ألْطَف ، وهو بالطّبع ألْيَق ؛ ولم تعدم مع هذه الحال معارضاً يقول لك : فما عبت من هذه الأخرى ؟ وأىّ وجه عدل بك عنها ؟ ألم يجتمع لها كيت وكيت ؟ وتتكامل فيها ذية وذية ؟ وهل للطاعن إليها طريق ؟ وهل فيها لغامز مغمز ؟ يحاجك بظاهر تحسّنه النّواظر ، وأنت تحيله على باطن تحصّله الضّمائر .

كذلك الكلام : منثورُه ومنظومُه ، ومُجْمَلُه ومفصّلُه : تجد منه المحكم الوثيق ، والجزْل القوىّ ، والمصنع المحكم ، والمنمّق الموشّح ، قد هذّب كل التهذيب ، وتثقف غاية التثقيف ، وجُهِد فيه الفكر ، وأتْعِب لأجله الخاطر ، حتى احتمى ببراءته عن المعايب ، واحتجز بصحته عن المطاعن ، ثمّ تجد لفؤادك عنه نبوة ، وترى بينه وبين ضميرك فجوة ؛ فإن خلص إليهما فبأن يُسهِّل بعض الوسائل إذنه ، ويمهِّد عندهما حاله ، فأما بنفسه وجوهره ، وبمكانه وموقعه ، فلا .

هذا قولى فيما صفا وخلُص، وهُذّب ونُقّح ؛ فلم يوجد فى معناه خلل ، ولا فى لفظه دخل ، فأمّا المختلّ المعيب ، والفاسد المضطرب فله وجهان : أحدهما ظاهر يُشْتَرك فى معرفته ، ويقلّ التفاضُل فى علمه ؛ وهو ما كان

اختلاله وفساده من باب اللّحن والخطأ من ناحية الإعراب واللغة ؛ وأظهر من هذا ما عرض له ذلك من قِبَل الوزن والذّوق ؛ فإنّ العاميّ قد يميّز بذوقه الأعاريض والأضرب ، ويفصل بطبعه بين الأجناس والأبحر ، ويظهر له الانكسار البين والزّحاف السائغ . والآخر غامض يوصَل إلى بعضه بالرّواية ، ويوقف على بعض بالدّراية ، ويحتاج فى كثير منه إلى دقة الفطنة ، وصفاء القريحة ، ولطف الفكر ، وبعد الغوص .

ومِلاكُ ذلك كله ، وتمامه الجامع له ، والزّمام عليه صحة الطبع ، وإدمان الرّياضة ؛ فإنهما أمران ما اجتمعا فى شخص فقصّرا فى إيصال صاحبهما عن غايته ، ورضيا له بدون نهايته .

وأقلّ الناس حظًّا فى هذه الصّناعة من اقتصر فى اختياره ونفيه ، وفى استجادته واستسقاطه ، على سلامة الوزن ، وإقامة الإعراب ، وأداء اللغة ؛ ثمّ كان همّه وبغيته أن يجد لفظًا مروّقًا، وكلامًا مزوّقًا ، قد حشى تجنيسًا وترصيعًا ، وشحن مطابقة وبديعًا ، أو معنى غامضًا قد تعمق فيه مستخرجه ، وتغلغلَ إليه مستنبطه ، ثمّ لا يعبأ باختلاف التّرتيب ، واضطرابِ النظم ، وسوء التأليف ، وهلهلة النسج ، ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ، ولا يسبر ما بينهما من نسب ، ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب ، ولا يرى اللفظ إلاّ ما أدّى إليه المعنى ، ولا الكلام إلاّ ما صوّر له الغرض ، ولا الحسن إلاّ ما أفاده البديع ، ولا الرّونق إلاّ ما كساه التصنيع ، وقد حملنى حبّ الإفصاح عن هذا المعنى على تكرير القول فيه ، وإعادة الذّكر له ؛ ولو احتمل مقدارَ هذه الرّسالة استقصاؤه ، واتسع حجمها للاستيفاء له لاسترسلت فيه ، ولأشرَفْتُ بك على معظمه »[1] .

(١) الوساطة ص ٤٢٦ — ٤٢٨ .

الاستعارة

« يقدر القاضى الجرجانى الاستعارة ، ويرى منها المستحسن والمستقبح ، ويرى أن تقديرها يرجع إلى الذوق ، وربما استطاع الناقد أن يكشف عن سبب استحسانه أو استقباحه » .

« الاستعارة أحد أعمدة الكلام ، وعليها المعوّل فى التوسع والتصرّف ، وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ ، وتحسين النظم والنثر » .

« وقد كانت الشعراء تجرى على نهج منها قريب من الاقتصاد ، حتى استرسل فيه أبو تمام ، ومال إلى الرّخصة ، فأخرجه إلى التعدّى ، وتبعه أكثر المحدثين بعده ، فوقفوا عند مراتبهم من الإحسان والإساءة والتقصير والإصابة .
وأكثر هذا الصّنف من الباب الذى قدمت لك القول فيه ، وأقمتُ لك الشواهد عليه ، وأعلمتك أنه يُميَّز بقبول النفس ونفورها ، ويُنْتَقَد بسكون القلب ونبوّه ، وربما تمكنت الحجج من إظهار بعضه ، واهتدت إلى الكشف عن صوابه أو غلطه »[1] .

(ب) الشاعر

١ — حب الجمال

« القاضى الجرجانى من المولعين بالجمال ، وهو فى شعره يبين عن إعجابه به وشوقه إليه » .

ساق جميل

« يشتاق الشاعر إلى لثم الوجنة الموردة » :

أَفْدِى الَّذِى قَالَ ، وَفِى كَفِّهِ   مِثْلُ الَّذِى أَشْرَبُ مِنْ فِيـهِ
الوَرْدُ قَدْ أَيْنَعَ فِى وَجْنَتِى   قُلْتُ : فَمِى بِاللَّثْمِ يَجْنِيهِ[2]

(١) الوساطة ص ٤٤٢ .
(٢) النص من معجم الأدباء ١٤ : ١٦ . أينع : احمر . وأينع الثمر : أدرك وطاب وحان قطافه .

حبيب فاتن

« مورد الخد ، أهيف القد ، فاتر الجفن » :

انْثُرْ عَلَى خَـدَّىَّ مِنْ وَرْدِكْ ... أَوْ دَعْ فَمِى يَقْطِفُهُ مِنْ خَدِّكْ
ارْحَمْ قَضِيبَ البَانِ ، وارْفُقْ بِهِ ... قَدْ خِفْتُ أَنْ يَنقَدَّ مِنْ قَدِّكْ (١)
وَقُلْ لِعَيْنَيْكَ – بِنَفْسِى هُمَا ... يُخَفِّفَـانِ السُّقْمَ عَنْ عَبْدِكْ (٢)

جميل وراء الستار

« يختلس إليه النظر ، فلما لم يره تخيل صورته » :

سَقَى الغَيْثُ ، أَوْدَمْعِى – وَقَلَّ كِلَاهُمَا ... لَهَا أَرْبُعًا ، جَوْرُ الهَوَى بَيْنَهَا عَدْلُ
وَفِى ذَلِكَ الخِدْرِ المُكَلَّلِ ظَبْيَـةٌ ... لِكُلِّ فُؤَادٍ عِنْدَ أَجْفَانِهَا ذَحْلُ (٣)
إِذَا خَطَرَاتُ الرِّيحِ بَيْنَ سُجُوفِهَا ... أَبَاحَتْ لِطَرْفِ العَيْنِ مَاحَظَرَ البُخْلُ
تَلَقَّتْ بِأَثْنَاءِ النَّصِيفِ لِحَاظَنَا ... وَقَالَتْ لِأُخْرَى : مَالِمُسْتَهْتِرٍ عَقْلُ
أَفِى مِثْلِ هَذَا اليَوْمِ يَمْرَحُ طَرْفُهُ ... وَأَعْدَاؤُنَا حُولٌ ، وَحُسَّادُنَا قُبْلُ (٤)
وَمَدَّتْ لِإِسْبَالِ السُّجُوفِ بَنَانَهَا ... فَغَازَلَنَا عَنْهَا الشَّمَائِلُ وَالشَّكْلُ (٥)

(١) ينقد : ينشق .
(٢) النص من معجم الأدباء ١٤ : ٢٥ .
(٣) الذحل : الثأر .
(٤) الحول : من الحول ، وهو إقبال الحدقة على الأنف . والقبل : إقبال السواد على الأنف . يريد أنهم يراقبوننا فى اختلاس .
(٥) النص من معجم الأدباء ١٤ : ٣٤ ، ٣٥ .

أحب لأجله اسمه وسميه وأعدائى

أُحِبُّ اسْمَهُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَسَمِيَّهُ ... وَيَتْبَعُـهُ فِى كُلِّ أَخْلَاقِهِ قَلْبِى
وَيَجْتَازُ بِالقَوْمِ العِدَا ، فَأُحِبُّهُمْ ... وَكُلُّهُمُ طَاوِى الضَّمِيرِ عَلَى حَرْبِى (١)

جَفْنٌ عليل

« إن ألوان الغرام تنبعث من عينه وفمه » :

قُلْ لِلسَّقَامِ الَّذِى بِنَـاظِرِهِ ... دَعْهُ ، وَأَشْرِكْ حَشَاىَ فِى سَقَمِهْ
كُلُّ غَـرَامٍ تَخَافُ فِتْنَتَـهُ ... فَبَيْنَ أَلْحَاظِـهِ وَمُبْتَسَمِهْ (٢)

ألم لحبيب فصد

« يتمنى الشاعر أن يتحمل آلامه ، وأن يفدى دمه بدماء عينيه » :

يَا لَيْتَ عَيْنِى تَحَمَّلَتْ أَلَمَكْ ... بَلْ ليت نَفْسِى تَقَسَّمَتْ سَقَمَكْ
وَلَيْتَ كَفَّ الطَّبِيبِ ، إِذْ فَصَدَتْ ... عِرْقَكَ أَجْرَتْ مِنْ نَاظِرَىَّ دَمَكْ
أَعَرْتَهُ صِبْغَ وَجْنَتَيْـكَ ، كَمَا ... تُعِيرُهُ ، إِنْ لُثِمْتَ ، مَنْ لَثَمَكْ (٣)

شكوى من الجمال

« يشكو من عينى الحبيب ما تجلبانه من الموت ، ويعجب من ورد خديه ، ويتمنى أن لو قبلهما » :

مَنْ ذَا الغَزَالُ الفَاتِنُ الطَّرْفِ ... الكَامِلُ البَهْجَـةِ وَالظَّرْفِ

(١) النص من معجم الأدباء ١٤ : ١٨ . وطاوى الضمير : عاقد النية .
(٢) النص من يتيمة الدهر ٤ : ٩ .
(٣) النص من المرجع السابق ص ١٠ .

مَـا بَالُ عَيْنَيْـهِ وَأَلْحَاظِهِ ... دَائِبَـةً تَعْمَـلُ فِى حَتْفِى [١]
وَاهًا لِذَاكَ الموَرْدِ فِى خَدِّهِ ... لَوْ لَمْ يَكُنْ مُمْتَنِعَ القَطْفِ
أَشْكُو إِلَى قَلْبِكَ يَا سَيِّدِى ... مَا يَشْتَكِى قَلْبِى مِنْ طَرْفِى [٢]

أجمل من الهلال

« إذا كان فى الهلال جمال الحبيب و بهاؤه ، فليس له جمال قده » :

هَذَا الهِـلَالُ شَبِيهُهُ فِى حُسْنِهِ ... وَبَهَـائِهِ . كَلَّا ، وَفَتْرَةِ جَفْنِهِ
هَبْـكَ ادَّعَيْتَ بَهَـاءَهُ ... كَيْفَ احْتِيَالُكَ فِى تَأَوُّدِ غُصْنِهِ
لَوْ لَاحَظَتْكَ جُفُونُهُ بِفُتُورِهَا ... أَقْسَمْتَ أَنَّكَ مَا رَأَيْتَ كَحُسْنِهِ [٣]

قبلة مختلسة

« يقسم الشاعر بالجمال أن الخدود ما خلقت إلا للتقبيل ، ولكنه لا يظفر إلا بقبلة مسروقة » :

وَغُنْجِ عَيْنَيْكَ وَمَا أَوْدَعَتْ ... أَجْفَـانُهَـا قلبَ شَجٍ وَامِقِ [٤]
مَا خَلَقَ الرَّحْمَنُ تُفَّـاحَتَىْ ... خَـدَّيْكَ إِلَّا لِفَمِ العَاشِقِ
لَكِنَّنِى أُمْنَـعُ مِنْهَا ، فَمَا ... حَظِّىَ إِلَّا خُلْسَـةُ السَّارِقِ [٥]

(١) الحتف : الموت .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ١٠ .
(٣) يتيمة الدهر ٤ : ١٠ .
(٤) الشجى : الحزين المشغول البال . والوامق المحب .
(٥) يتيمة الدهر ٤ : ١١ . والخلسة : ما يختلس .

عينان منهما السعادة والشقاء

« يصف جمال غلامه : أبى القاسم » :

يَا قُبْلَةً نِلْتُهَـا عَلَى دَهَـشٍ ... مِنْ ذِى دَلَالٍ مُهَفْهَفٍ غَنِجِ [١]
قَدْ خَيَّرَ الخِشْفَ غُنْجُ مُقْلَتِـهِ ... وَالوَرْدَ تَوْرِيدُ خَدِّهِ الضَّرِجِ [٢]
إِذَا تَثَنَّى أَوْ قَامَ مُعْتَـدِلًا ... قَالَ لَهُ الغُصْنُ : أَنْتَ فِى حَرَجٍ [٣]
قَدْ قَسَّمَ الحُسْنُ مُقْلَتَيْكَ أَبَا الْـ ... قَاسِمِ بَيْنَ الفُتُورِ وَالدَّعَجِ [٤]
قُلْ لَهُمَا يَرْفُقَـا بِقَلْبِ فَتًى ... طَوَيْتَ أَحْشَاءَهُ عَلَى وَهَجِ [٥]
فَمِنْهُمَـا ـ لَا عَدِمْتُ ظُلْمَهُمَا ـ ... سُقْمُ فُؤَادِى ، وَمِنْهُمَا فَرَجِى [٦]

٢ ـ شوق إلى بغداد

« كان لبغداد أثر عميق فى نفس القاضى الجرجانى ، ونورد هنا بعض ما قاله فى الحنين إلى بغداد »

يغفر ذنوب الأيام

سَقَى جَانِبَىْ بَغْدَادَ أَخْلَافُ مُزْنَةٍ ... تُحَاكِى دُمُوعِى صَوْبَهَا وَانْحِدَارَهَا
فَلِى فِيهِمَا قَلْبٌ شَجَانِى اشْتِيَاقُهُ ... وَمُهْجَةُ نَفْسٍ مَا أَمَلُّ ادِّكَارَهَا
سَأَغْفِرُ لِلأَيَّامِ كُلَّ عَظِيمَـةٍ ... لَئِنْ قَرَّبَتْ بَعْدَ البِعَادِ مَزَارَهَا [٧]

(١) المهفهف : الضامر البطن الدقيق الخصر . والغنج : ذو الدلال .
(٢) الخشف : ولد الظبى أول ما يولد . والضرج : الأحمر .
(٣) الحرج : الضيق .
(٤) الدعج : شدة سواد العين مع سعتها .
(٥) الوهج : الاتقاد .
(٦) يتيمة الدهر ٤ : ١٠ .
(٧) يتيمة الدهر ٤ : ١٢ .

حنين إلى معاهد الصّحب

« يتمنى رجوع أيامه فى بغداد ، ويتذكر ديار أحبابه ، ويتخيل مقامه فيها ويصف موضعه » :

أَراجِعَةٌ تِلْكَ اللَّيالِى كَعَهْدِهَا … إلى الوَصْلِ ؟ أمْ لا يُرْتَجى لِى رُجُوعُهَا ؟
وَصُحْبَــةُ أقْوامٍ لَبِسْتُ لِفَقْدِهِمْ … ثِيابَ حِدادٍ مُسْتَجَدٍّ خَلِيعُهَا
إذَا لاحَ لِى من نحو بَغْدَادَ بَارِقٌ … تجافَتْ جُفُونِى، وَاسْتُطِيرَ هُجُوعُهَا (١)
سَقَى جَانِبَىْ بَغْدادَ كُلُّ غَمامَــةٍ … يُحاكِى دُمُوعَ المُسْتَهامِ هُمُوعُهَا (٢)
مَعاهِدُ مِنْ غِزْلَانِ أُنْسٍ تَحالَفَتْ … لَوَاحِظُهَا أَلَّا يُدَاوَى صَرِيعُهَا
بِهَا تَسْكُنُ النَّفْسُ النَّفُورُ ، وَيَغْتَدِى … بِآنَسَ مِنْ قَلْبِ المُقِيمِ نَزِيعُهَا (٣)
يَحِنُّ إلَيْهَا كُلُّ قَلْبٍ كَأَنَّمَا … يُشَادُ بِحَبَّــاتِ القُلُوبِ رُبُوعُهَا
فَكُلُّ لَيالِى عَيْشِهَا زَمَنُ الصِّبا … وَكُلُّ فُصُولِ الدَّهْرِ فيهَا رَبِيعُهَا
وَمَا زِلْتُ طَوْعَ الحَادِثَاتِ تَقُودُنِى … عَلَى حُكْمِهَا مُسْتَكْرَهًا ، فَأُطِيعُهَا

ويصف سكناه فيقول :

بِدَارٍ بِهَا يَسْلَى المَشُوقُ اشْتِيَاقَهُ … وَيَأْمَنُ رَيْبَ الحَادِثَاتِ مَرُوعُهَا
بِهَا مَسْرَحٌ لِلْعَيْنِ فِيهَا يَرُوقُهَــا … وَمُسْتَرْوَحٌ لِلنَّفْسِ مِمَّــا يَرُوعُهَا
يَرَى كُلُّ قَلْبٍ بَيْنَهَا مَا يَسُرُّهُ … إذَا زَهَرَتْ أَشْجَارُهَــا وَزُرُوعُهَا
صَفَا عَيْشُنَا فِيهَا ، وَكَادَتْ لِطِيبِهَا … تُمَازِجُهَا الأَرْوَاحُ لَوْ نَسْتَطِيعُهَا (٤)

(١) الهجوع : النوم .
(٢) همعت العين هموعاً : أسالت دمعها . والمستهام : ذاهب الفؤاد من الحب .
(٣) النزيع : الغريب .
(٤) يتيمة الدهر : ٤ : ١٢ .

صاحب فى بغداد

« يشتاق الشاعر إليه ، ويتعذب قلبه لبعده » :

بِجَانِبِ الكَرْخِ (١) مِنْ بَغْدَادَ لِى سَكَنٌ … لَوْلَا التَّجَمُّلُ مَا أَنْفَكُّ أَنْدُبُهُ
وَصَاحِبٌ مَا صَحِبْتُ الصَّبْرَ مُذْ بَعُدَتْ … دِيَارُهُ ، وَأَرَانِى لَسْتُ أَصْحَبُهُ
فِى كُلِّ يَوْمٍ لِعَيْنِى مَا يُؤَرِّقُهَا … مِنْ ذِكْرِهِ ، وَلِقَلْبِى مَا يُعَذِّبُهُ (٢)

٣ ـ جمال الطبيعة

« ليس فيما بين يدينا من شعره ما قصد به إلى وصف الطبيعة وحده ، ولكنه يرد فى قصائد المدح »

روضة مزدهرة

« أزهار هذه الروضة فرحة باسمة ، كأنما يغازل بعضها بعضاً » :

إذَا اسْتَشْرَفَتْ عَيْنَاكَ جَانِبَ تَلْعَةٍ … جَلَتْ لَكَ أُخْرَى مِنْ رُبَاهَا جَوَانِبَا (٣)
يُضَاحِكُنَا نُوَّارُهَا ، فَكَأَنَّمَا … يُغَازِلُ بَيْنَ الرَّوْضِ مِنْهَا حَبَائِبَا
تَبَسَّمَ فِيهَا الأُقْحُوَانُ ، فَخِلْتُهُ … تَلَقَّاكَ مُرْتَاحًا إلَيْكَ مُدَاعِبَا
وَحُلَّ نِقَابُ الوَرْدِ ، فَاهْتَزَّ يَدَّعِى … بِوَادِيهِ مِنْ وَرْدِ الخُدُودِ مُنَاسِبَا (٤)

ربيع مسكر

« اكتست الأرض فى الربيع بوشى مذهب ، وعاد للشجر طلاقته ، وخلعت الرياض حدادها ، وتمايلت أشجارها سكرى » :

أَلَمْ تَرَ أَنْوَاءَ الرَّبِيعِ كَأَنَّمَا … نَشَرْنَ عَلَى الآفَاقِ وَشْيًا مُذَهَّبَا (٥)

(١) الكرخ : محلة ببغداد .
(٢) معجم الأدباء ١٤ : ٢٩ .
(٣) استشرف الشيء : رفع بصره ؛ لينظر إليه . والتلعة : ما علا من الأرض .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ١٤ .
(٥) الأنواء : جمع نوء ، وهو هنا : المطر .

فَمِنْ شَجرٍ أَظْهَرْنَ فِيهِ طَلَاقَةً   وَكَانَ عَبُوسًا قَبْلَهُنَّ مُقَطِّبَا
وَمِنْ رَوْضَةٍ قَضَّى الشِّتَاءُ حِدَادَهَا   فَوَشَّحْنَ عِطْفَيْهَا مُلَاءً مُطَيَّبَا[1]
سَقَاهَا سُلَافُ الغَيْثِ رِيًّا ، فَأَصْبَحَتْ   تَمَايَلُ سُكْرًا كُلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا[2]

خريف ناضر

« يرى الشاعر الخريف أجمل الفصول ، رقيق الهواء ، صافى الطبيعة » :

رَحَلَ المَصِيفُ ، فَلَا تَزَلْ   أَبَدًا تُوَدِّعُ رَكْبَهُ
وَبَدَا الخَرِيفُ فَحَيِّ خَا   لِصَةَ الزَّمَانِ ، وَلُبَّهُ
رَقَّ الهَوَاءُ ؛ فَمَا تَرَى   نَفَسًا يُعَالِجُ كَرْبَهُ
فَلَوِ اسْتَحَالَ مُدَامَةً   مَا كُنْتُ أَحْظُرُ شُرْبَهُ[3]

٤ – شخصيات

« مدح الشاعر بعض الرؤساء ، فكان منهم قابوس بن وشمكير ، ومنهم :

الصاحب بن عباد

« أديب يبتكر المعانى ، وتأتلف حولها الألفاظ » :

وَلَا ذَنْبَ لِلْأَفْكَارِ أَنْتَ تَرَكْتَهَا   إِذَا احْتَشَدَتْ لَمْ تَنْتَفِعْ بِاحْتِشَادِهَا
سَبَقْتَ لِأَفْرَادِ المَعَانِى ، وَأَلَّفَتْ   خَوَاطِرُكَ الأَلْفَاظَ بَعْدَ شِرَادِهَا

(١) العطف : الجانب .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ١٤ .
(٣) يتيمة الدهر ٤ : ١٦ .

فَإِنْ نَحْنُ حَاوَلْنَا اخْتِرَاعَ بَدِيعَةٍ   حَصَلْنَا عَلَى مَسْرُوقِهَا وَمُعَادِهَا[1]

« أهل للمجد ، يقسم على الناس أرزاقهم » :

يَأَيُّهَا القَرْمُ الَّذِى بِعُلُوِّهِ   نَالَ العَلَاءُ مِنَ الزَّمَانِ السُّولَا
قَسَمَتْ يَدَاكَ عَلَى الوَرَى أَرْزَاقَهَا   فَكَأَنَّكَ قَاسِمُ رِزْقِهَا المَسْئُولَا[2]

« كريم شجاع ، لا يتلجلج ، ولكنه صارم كالسيف » :

أَغَرُّ ، أَرْوَعُ ، تُلْهِينَا وَقَائِعُهُ   فى المَالِ وَالقِرْنِ عَنْ صِفِّينَ وَالجَمَلِ[3]
مُسْتَرْضِعٌ بِثُدِىِّ المَجْدِ مُفْتَرِشٌ   حِجْرَ المَكَارِمِ ، مَفْطُومٌ عَنِ البُخْلِ
أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ لَفْظًا غَيْرَ لَجْلَجَةٍ   تَغْشَاهُ إِنْ مَالَ مُضْطَرًّا إِلَى العِلَلِ[4]

« لا سبيل إلى حصر أياديه » :

وسائلٍ لِى عَنْ نَعْمَاكَ قُلْتُ له :   تَفْصِيلُهَا مُسْتَحِيلٌ فَارْضَ بِالجُمَلِ[5]

«متوقد الذهن ذكاء، حتى إن الحمى التى أصابته ليست إلا من توقد هذا الذهن » فإذا مرض قال له :

لَأَعْدَى تَشَكِّيكَ البِلَادَ وَأَهْلَهَا   وَمَا خِلْتُ أَنَّ الشَّكْوَ يُعْدِى على البُعْدِ
وَمَا أَحْسَبُ الحُمَّى ، وَإِنْ جَلَّ قَدْرُهَا   لِتَجْسُرَ أَنْ تَدْنُو إِلَى مَنْبَعِ المَجْدِ
وَمَا هِىَ إِلَّا مِنْ تَلَهُّبِ ذِهْنِهِ   تَوَقَّدَ حَتَّى فَاضَ مِنْ شِدَّةِ الوَقْدِ[6]

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ١٥ .
(٣) معركة صفين : معركة بين على ومعاوية . وكانت معركة الجمل بين على وخصومه ، وكانت السيدة عائشة معهم تركب جملا .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ١٦ .
(٥) المرجع السابق ص ١٧ .
(٦) المرجع السابق نفسه .

(ج) المؤرّخ

« أثبت الثعالبى فى كتابه فصلين من خطبة كتاب " تهذيب التاريخ " للقاضى الجرجانى ننقلهما عنه فى هذا الفصل »

فضل التاريخ

« التاريخ يميز الناسخ والمنسوخ ، ويروى أعمال الرسول »

« ولولا التاريخ لما تميز ناسخ من منسوخ ، ومتقدّم من متأخر ، وما استقرّ من الشرائع وثبت مما أزيل ورفع ، ولا عُرف ما كان أسبابها ، وكيف مسّت الحاجة إليها ، وحصلت وجوه المصلحة فيها ، ولا عُرفت مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحروبه وسراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولاين ، وسارّ وخافت ، وفى أى وقت جاهر وكاشف ، ونبذ أعداءه وحارب ، وكيف دبّر أمر الله الذى ابتعثه له ، وقام بأعباء الحقّ الذى طوّقه ثقله ، وأىّ ذلك قدّم ، وأيها أخر ، وبأيها بدأ ، وبأيها ثنّى وثلّث ؛ وإنّ الولد البرّ ليتفقد من آثار والده ، والصّاحب الشفيق ليُعْنى بمثله من شأن صاحبه ، حتى بعد أن أغفله مستهيناً به ، مستوجباً لعتبه ، فكيف لمَنْ هو رحمة الله المهداة إلينا ، ونعمته المفاضة علينا ، ومَنْ به أقام الله دنيانا وديننا ، وجعله السفير بينه وبيننا ، وأىّ أمر أشنع وحالة أقبح من أن يحلّ الرّجل محل المشار إليه المأخوذ عنه ، ثمّ يسأل عن الغزوتين المشهورتين من مشهور غزواته ، والأثرين من مستفيض آثاره ؛ فلا يعرف الأوّل من الثّانى ، ولا يفرّق بين البادى والتالى »[١] .

الهدف من تأليف الكتاب

« للمؤلف غرضان من تأليف كتابه : أحدهما دينى يقيد به أخبار الرسول ، والثانى دنيوى هو أن يقوم الكتاب تذكاراً له عند الصاحب بن عباد »

« وهذا كتاب قصدت به غرضى دين ودنيا ؛ أما الدّين فأن أقيد به من

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .

آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخباره ، ومعارف أحواله وأيامه ، وذكر ما طمس الله من معالم الشرك ، وأوضح معارف الحقّ ، وما خفض بعلوّ كلمته ، وعلى أيدى أنصاره وشيعته من رايات كانت عالية على الأبد ، مكنوفة بحصانة العدد ، وكثافة العـَدَد ، ما يعلم به العاقل المتوسّم أنّ تلك الفئة القليلة ، والعدّة اليسيرة ، على قلة الأهبة ، وقصور العُدّة ، وخمول الذّكر ، وضعف الأيدى ، وعلوّ أيدى الأعداء ، وشدّة شوكة الأقران ، لا تستمرّ لها ، ولا تتفق معها مغالبة الأمم جمعا ، ومقاومة الشعوب طرّا ، وقهر الجنود الجمّة ، والجموع الضخمة ، وإزالة الممالك الممهدة ، والولايات الموطدة ، فى الدّهر الطويل والزّمن المديد ، مع وفور العدّة ، وانبساط القدرة ، واستقرار الهيبة ، إلاّ بالنصرة الإلهية ، والمعونة السماوية ، وإلاّ تأييد لا يخص الله به إلاّ الأنبياء ، ولا ينتخب له إلاّ الأولياء ، وإن اختص فيه معاناة أنصاره وأتباعه ، والقائمين بإظهار دينه فى حياته ، وعمارة سبيله بعد وفاته ، من مصابرة اللأواء[١] ، ومعالجة البأساء ، وبذل النفوس والأموال ، وإخطار المهج والأرواح ، ما يزيد القلوب للإسلام تفخيماً ، وبحقه تعريفاً ، ولما عساها تستكبر من أفعالها تصغيراً ، وفى الازدياد منه ترغيباً ، وما أجريه فى خلال ذلك من تذكير بآلاء الله ، وتنبيه على نعم الله ، بما أقتصّ من أنباء الأوّلين ، وأبثّ من أخبار الآخرين ، وأبين من الآيات التى أمر الله بالمسير فى الأرض لأجلها ، وبعث على الاعتبار بها وبأهلها ؛ فقال : « أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ » ؛ فيحرص العاقل على استبقاء نعمة الله عنده بالشكر الذى ضيعه من سلبه الله تلك النعم ، ويتحرّز من غوائل الكفر الذى أحلّ بهم تلك النقَم[٢] .

وأما غرض الدّنيا فأن أقيم بفناء الصّاحب الجليل — أدام الله بهاء العلم

(١) اللأواء : الشدة والمحنة .

(٢) النقم : جمع نقمة ، وهى : المكافأة بالعقوبة .

بدوام أيامه — مَن يخلفنى فى تجديد ذكرى بحضرته، وتكرير اسمى فى مجلسه، ومَن ينوب عنى فى مزاحمة خدمته ، على الاعتراف بحقّ نعمته ؛ وعلمت أنى لا أستخلف مَن هو أمسّ به رحماً ، وأقرب منه نسباً ، وهو أرفع عنده موضعاً ، وألطف منه موقعاً ، وأخصّ به مدخلاً ومخرجاً ، وأشرف بحضرته مقاماً وموقفاً ، من العلم الذى يزكو عنده غرساً ، فيضعف ريعاً ، ويحلو طعماً ، ويطيب عَرْفاً[1] ، ويحسن اسماً ؛ فاخترت لذلك هذا الكتاب ثقة بوجاهته ، وعلماً بقرب منزلته ، وكيف لا يكون عنده وجيهاً مكيناً ، ومقبولاً قريناً ، وإنما هو نتاج تهذيبه ، وثمرة تقويمه ، . . . وريع تحريكه ، فلولا عنايته لما صدقت النية ، ولولا إرشاده لما نفذت الفطنة ، ولولا معونته لما استجمعت الآلة ؛ وما يبعد به عن إيثار العلوم وتعظيمها ، وعن تقديمها وتقريبها ؛ وهو الذى نصبه الله لها مثالا ، وأقامه عليها مناراً ، وجعله لها سنداً ، ولإحيائها سبباً[2] .

(١) العرف : الرائحة .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٨ .

مراجع البحث

١ — الإبانة عن سرقات المتنبّى . (طبع دار المعارف) .
لأبى سعيد محمد بن أحمد العميدى المتوفى سنة ٤٣٣ هـ .

٢ — أبو الطيب المتنبّى . (مطبعة الشباب بمصر سنة ١٩٢١ م) .
لمحمد كمال حلمى بك

٣ — أدب الدّنيا والدّين . (مطبعة شركة التمدّن الصناعية) .
لأبى الحسن الماوردى .

٤ — أسرار البلاغة . (مطبعة عيسى البابى الحلبى سنة ١٩٣٩ م) .
لعبد القاهر الجرجانى .

٥ — أسس النقد الأدبىّ عند العرب . (مطبعة الرسالة) .
للدّكتور أحمد أحمد بدوى .

٦ — الأعلام . (المطبعة العربية بمصر سنة ١٩٢٧ م) .
لخير الدّين الزّركلى .

٧ — الأغانى . (مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .
لأبى الفرج الأصفهانى .

٨ — البديع . (مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٤٥ م) .
لعبد الله بن المعتز .

٩ — تاريخ الأدب العربى — الجزء الثالث — (مطبعة لجنة البيان العربى) .
للأستاذ السباعى بيومى .

١٠ — تاريخ الأدب العربى — الجزء الثانى — (طبع دار المعارف بمصر) .
لكارل بروكلمان ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

١١ — تاريخ علوم البلاغة ، والتعريف برجالها . (مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٥٠ م) .

لأحمد مصطفى المراغى .

١٢ ــ تاريخ النقد الأدبىّ عند العرب . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ م) .

لطه أحمد إبراهيم .

١٣ ــ دلائل الإعجاز . (مطبعة المنار سنة ١٣٣١ ﻫ)

لعبد القاهر الجرجانى .

١٤ ــ ديوان المتنبىّ . (مطبعة هندية بالموسكى بمصر سنة ١٩٢٣ م) .

١٥ ــ ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين . (مطبعة نهضة مصر) .

للدكتور ر . بلاشير ، وترجمة الدكتور أحمد أحمد بدوى .

١٦ ــ الرّسالة الحاتمية . (طبع دار المعارف بمصر ، مع كتاب الإبانة عن سرقات المتنبى) .

لأبى علىّ محمد بن الحسن المعروف بالحاتمى ، المتوفى سنة ٣٨٨ ﻫ .

١٧ ــ روضات الجنات . (طبع حجر بدار الكتب . رقم ٢٦٠٩ تاريخ) .

لمحمد باقر بن الحاجى أمير زين العابدين الموسوى . من علماء القرن التاسع الهجرى .

١٨ ــ زهر الآداب ، وثمر الألباب . (المطبعة الرّحمانية بمصر) .

لأبى إسحق الحصرى القيروانى ، بتحقيق الدكتور زكى مبارك .

١٩ ــ شذرات الذّهب ، فى أخبار مَن ذهب . (طبع القاهرة سنة ١٣٥٠ﻫ) .

لعبد الحىّ بن العماد الحنبلى .

٢٠ ــ شرح المعلقات السبع . (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٠ ﻫ) .

للزوزنى .

٢١ ــ الشعر والشعراء . (الطبعة الأولى سنة ١٣٣٢ ﻫ) .

لأبى محمد عبد الله بن قتيبة ، المتوفى سنة ٢٧٦ ﻫ .

٢٢ ــ الصاحب بن عباد . (مطبعة الترّقى بدمشق سنة ١٩٣٢ م) .

لخليل مردم بك .

٢٣ ــ الصّاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها . (مطبعة المؤيد سنة ١٩١٠ م) .

لأحمد بن فارس .

٢٤ ــ الصّناعتين . (مطبعة محمد على صبيح ــ الطبعة الثانية) .

لأبى هلال العسكرى .

٢٥ ــ الصّورة الأدبية . (دار مصر للطباعة سنة ١٩٥٨ م) .

للدكتور مصطفى ناصف .

٢٦ ــ طبقات الشافعية . (المطبعة الحسينية المصرية ــ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤ﻫ) .

لتاج الدّين السبكى .

٢٧ ــ طبقات فحول الشعراء . (مطبعة دار المعارف) .

لمحمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١ ﻫ . بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر .

٢٨ ــ طبقات الفقهاء . (مخطوط بدار الكتب رقم ح ١١٨٣) .

لأبى إسحق إبراهيم بن علىّ الشيرازىّ .

٢٩ ــ طبقات المفسرين . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٦٨ تاريخ) .

لمحمد بن على الداودى المالكى .

٣٠ ــ ظهر الإسلام ــ الجزء الأول ــ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥) .

لأحمد أمين .

٣١ ــ عبد القاهر الجرجانى . (دار مصر للطباعة سنة ١٩٦٢ م) .

للدكتور أحمد أحمد بدوى .

٣٢ ــ عبد القاهر والبلاغة العربية . (المطبعة المنيرية سنة ١٩٥٢ م) .
للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى .

٣٣ ــ العمدة ، فى صناعة الشعر ونقده . (مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧) .
للحسن بن رشيق القيروانى .

٣٤ ــ ابن العميد . (مطبعة الاعتدال بدمشق) .
لخليل مردم بك . .

٣٥ ــ فوات الوفيات . (مطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ) .
لمحمد شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .

٣٦ ــ الكامل فى التاريخ . (المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠١ هـ) .
لعلى بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ .

٣٧ ــ كشف الظنون . (طبع الآستانة سنة ١٩٤١ م) .
لحاجى خليفة المتوفى سنة ١٠٦٦ هـ .

٣٨ ــ الكشف عن مساوئ شعر المتنبىّ (طبع دار المعارف بمصر ، مع كتاب الإبانة عن سرقات المتنبى) .
للصاحب بن عباد .

٣٩ ــ المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر . (المطبعة البهيّة) .
لنصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٢٧ هـ .

٤٠ ــ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ــ الدّولة العباسية . (مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر) .
لمحمد الخضرى .

٤١ ــ معجم الأدباء . (مطبعة دار المأمون) .
لياقوت الرّومى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .

٤٢ ــ معجم البلدان . (مطبعة السعادة بمصر) .

٤٣ ــ مقدمة ابن خلدون . (المطبعة البهية) .
لعبد الرّحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ .

٤٤ ــ من النقد والأدب ــ المجموعة الرّابعة ــ (مطبعة الرسالة بالقاهرة) .
للدكتور أحمد أحمد بدوى .

٤٥ ــ الموازنة بين أبى تمام والبحترى . (مطبعة محمد على صبيح بمصر) .
للحسين بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ .

٤٦ ــ الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء . (المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣ هـ) .
للمرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ .

٤٧ ــ النثر الفنى فى القرن الرّابع . (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤م) .
للدكتور زكى مبارك .

٤٨ ــ النقد المنهجىّ عند العرب . (مطبعة الفكرة بالقاهرة) .
للدكتور محمد مندور .

٤٩ ــ الوساطة بين المتنبى وخصومه . (مطبعة عيسى البابى الحلبى) .
للقاضى علىّ بن عبد العزيز الجرجانى . بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى .

٥٠ ــ وفيات الأعيان . (المطبعة الميمنية سنة ١٣١٠ هـ) .
لأحمد بن محمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ .

٥١ ــ يتيمة الدّهر . (مطبعة الصاوى سنة ١٩٣٤ م) .
لأبى منصور الثعالبى ، المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .

الفهرس

الفصل الأوّل

عصر القاضى الجرجانى

الفصل الثانى

القاضى الجرجانىّ فى عصره

الفصل الثالث

جوانب القاضى الجرجانىّ

الفصل الرّابع

منتخبات من آثار القاضى الجرجانىّ

رقم الإيداع	١٩٨٠/٣٩٦٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٤-٧١-٠

١/٨٠/١٤٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)